بعد مرور العاصفة

(نظرة ثانية)

بعد مرور العاصفة

(نظرة ثانية)

مجموعة قصصية

مشيرة يوسف

بعد مرور العاصفة (نظرة ثانية)

مجموعة قصصية

الكاتبة : مشيرة يوسف

إخراج فني : أحمد سيف الإسلام

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لغوي : أحمد الحديدي

رقم الإيداع : 2018/22303

الترقيم الدولي : 978-977-6689-0-0

سنة النشر : 2019

الطبعة : الأولى

عدد الصفحات : 112

كاريزما للنشر والتوزيع

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوار مدارس حسام الدين الخاصة . فيصل . الجيزة

موبايل: ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥ / ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ / ٠١٠٠٩٨٢٣٩٨٤

جميع الحقوق محفوظة ©

الإهداء

لـن يمكننـي إهـداء كتـابي إلى أسرتي الحبيبـة، وعائلتـي الغالية بأسرها؛ لأنهم بالقلب موطن كل إهداء. وهم رحلتي العزيزة بالحياة.

أبي الحبيـب الـذي أحسـن إلينـا ببهـاء باختيـاره حبيبـة العمر، والذكر، والروح.

أمي الحبيبة ـ رحمها الله، وطيَّب مثواها ـ التي أتمت رسالتها تجاهنا أنا وإخوتي الأحباء برفقته الفاضلة بأرقى ما تكون المحبة، والاحترام؛ لتصب كل تلك المحبة في حضور زوجي الحبيب، وولدي الحبيبين.

ولـن يمكننـي إهـداؤه إلى روح معلمـي الأول نبيـل الرسـالة الأسـتاذ عبد الوهاب مطاوع رحمـه الله، وغفر له؛ فهو نبراسي الأول في عـالم الكتابة بلا مشـارك سـوى عمـق نظرته الفاضلـة التي يتزين قلبي بارتدائها، وعقلي باتباعها.

وإنـما إليـك أهدي أيهـا القلـب المتعب من جفاف المسـير، ومشـقة الطريق، وحيرة الاختيار! أهدي إليك كلماتي؛ لتكون لك بها نظرة ثانية.

الكاتبة/ مشيرة يوسف

مقدمة

الإنسـان موقف. والحياة قصة يتعذر مرورها إن لم نحسن قراءة فحواهـا أحيانا حين تكدر رؤيانا العاصفة. قد تكون عاطفة، أو محنا مصادفـة، لكنها تمر مثلـما الأيام تمر. فان كانت الحيـاة قصة فلابد لنا دائـما من محاولة إعـادة قراءتها بنظرة ثانية بعد مـرور العاصفة. نظرة أخرى يسـتقيم فيها جمـوح القلب عن الوله، والعقـل عن الغضب، والتفـس عن الحزن، والروح عن التيه، والضمير عن المثالية المفرطة. فكل جموح هو جنوح عـن الاعتدال. وكل إفراط هو اختلال بزاوية الرؤية. بحاجة ملحة إلى نظرة ثانية.

في المرآة

بعد مرور العاصفة بخمسة أعوام..

وجدت نفسها تنظر ذات مرة إلى المرآة؛ لتجد أمامها امرأة لا تعرفها. عاودت النظر مرارا. ترى هل تبدلت قسماتها إلى هذه الدرجة، وتركت السنوات بصماتها على محياها؟ لا زالت عيناها كما هي رائقة النظرات على الرغم من مرور السنوات، وما فعلته بها. لم يتغير صفاؤها على الرغم من ذبولها. لم يتعكر لونها بالرغم من شحوبها. لم تفتقد ابتسامتها حياءها وإن كانت ندرت على وجهها. كان السر كله في روحها. تلك القوية الأبية على الرغم من شجونها. ازداد يقينها أن السنوات بريئة من ذنبها. إنها هي ذاتها من عجزت، ومن انتصرت، ومن صفحت عن جميع من آذوها. وصارت تجلد نفسها. تساءلت في نظرة ثانية لمن فعلت كل هذا، ولم تقاعست عن نصرة ذاتها. أخذت تتذكر، ثم توقفت. ذهبت إلى غرفتها بعد أن قفز ذاك القرار أخيرا والذي كان سجينا بحوزتها. وحين عاد زوجها وجد رسالتها.

<عزيزي الرئيس! لا أسخر من قيادتك، وإسباغ شرف مناداتك بهـا؛ فأنـا أعلم كـم أنت مولـع بها. لم تـرني زوجة أبـدا، ولا وضعت نفسـك زوجـا لي. كنـت مزهوا دائما بـدور الرئيس في حيـاتي. وكنت طيِّعـة دوما في تمكين سـعادتك مـن إيلامي. وفقـدت في رحلة عملي الدائمـة معـك – عفـوا: عنـدك – كل نفيس. فقدت نفـسي، وذاتي. وحـين بدأت بفقد كرامتي ولجت شرارة الفـراق في خاطري؛ لتمزق كل أوردتي التي طالما رشـقت سـهام صدماتك أوعيتها. وبدأت أعد نفـسي؛ للرحيـل. أفقت أخيرا من سـباتي بعد سـنوات؛ لأتخذ قراري بالرحيـل. أعتـذر لنفسي عن مـرار التأخير. وأتمنى لك إقامة سـعيدة في دار أحـزاني التـي أتركهـا أمانة بين يديـك. وأنا على يقـين أنك لن تمل الإقامـة فيها سريعا كعادتك. وسـتجعلك المفاجـأة قيد التفكير. حملـت معـي كل أشـيائي الثمينـة. حملـت نفـسي، وذاتي، وكرامتـي، وشريـط حياتي؛ لأتذكرك دومـا، وأغير وجهتي كل حـين. هاتفه لن أعـود إليـك. لا تبحث عني! انتظر برائتي الشـكلية من قيدك بالرغم مـن تحـرري الفعلي منها! فقط أريـد توثيقا ألا ألتقيَـك أبدا بعد الآن. ومن الآن سأعد حقيبتي للغد. بنظرة ثانية أجتمع بكل ما فارقت من أجلـك. والحقيقة أننـي اجتمعت بهم فور اتخاذي قـراري. ألم أخبرك قبلا؟ نعم. اجتمعت بنفسي، وذاتي، وكرامتي. ولن أعود إليك.>

سـقط على مقعده. أمسـك بمحمولـه الذي لا يفارقـه. وحين جاء برقمهـا سـقطت كل الكلـمات مـن جوفـه. ضاعـت لهجـة الوعيـد من صوتـه. وفـرت صيحاتـه الآمـرة فـرارا. وبقـي سـؤال ترتعد له نفسـه: كيف يمكنني فقدها؟! وبالقطار ارتسـمت على وجهها ابتسـامة مشرقة أخيرا وهي بتتسـم لمرآى ذهوله في خيالها. وأخيرا أشرقت بالرحيل. كم مرت من سـنوات؛ لتسـتعيد تلك الإشراقة وجودهـا بوجودها ؟ وحين أعادت النظر إلى مرآتها ابتسـمت مـن جديد لذاتها وهي تنحني احتراما؛ لتصفيق مشجعيها. وهي تتأبط ذراع إرادتها في رحلتها الجديدة نحو الغد اسـتعادت – بنظـرة ثانية – كل ما فقدت بشـحذ همتهـا، وروعة حريتها التـي وجدتهـا أخيرا. وبعد سـنوات قليلـة وقف هناك مـن بعيد لا يجرؤ عـلى الاقـتراب وهو يرقـب تألقها في صمـت دامع بعد مـرور العاصفة، واسـتعادة هدوئه مـن بركان غضب ذكوريته. وانطفـأت حمم أعاصيره، وعنـاده الغروري. واندثرت إرادة تسـلطه. ذهبت كل الأشـياء. وبقيت بنفسـه تلك الابتسامة التي طالما ارتسـمت على وجهها قبله سنوات قبل احتلاله مقعد حزنها. يحمل ابتسامة مرارة وجلة. كيف يستعيدها؟ وكلما مـرت بخياله أشرطـة ذكرياتها – وحوارتها الدامعة؛ لاسـتجداء النجاح بحياتها التعسـة معـه، أو تحرير وثاقها من قيده الدامـي لها – غاص بألام

الندم على ضياعهـا. ذات يوم بعد انتهاء الحفل المقام على شرفها وجدت باقة بهية من البنفسـج في انتظارها. تعجب يقينها الرافض؛ تصديقا لمرسـلها الذي أرسـلها لهـا أخيرا بعد توقفها عـن انتظارها تلك الزهور التي عاشـت بـين أصابعـه عمـرا في أحلامها تنتظـر وجـودا بلحظات عمرهـا حتى فرت منـه، ومنها. ورحلت؛ لتشرق من جديد بعـد اجتياز بوابة العبور لأحلامها المسـتعادة. وحـين هـدأت العاصفـة – ومـرت بضجيـج الغضـب، وأنين الأحـزان – أنسـاها الزمن آلام المـاضي، ومراراته. وبقيـت بروحها المضيئة رقعـة صفحها الدائمة شـاغرة لمن تعاقب وصولـه إلى زُمرتها. وقد كان هو مدللهـا الأول. فهل تدركه لمحات صفحتها المضيئة؟ مرت سـنوات على فراراها من سـطوته. أشـادت بصواب قرارها. لمعت عيناها ببريق النجاح خلالهـا، فحصدت أخـيرا ثمار عزم لم يضع عبثا. وأضـاءت هالة الأضواء إرادتهـا؛ لتمضي عزما بعزما. لم تلتفت أبدا إلى من داعبتهم الأحلام مرتجين فـوزا بها. كانـت تلتقيهم قدرا يمر بها في طريقها كمرور السـاعات بالأيام كوجود الرمال بالشطآن كمرور السنوات في الأزمان. وهي كما هي بيضاء النظـرة موصـدة الأبواب، والنوافذ. لم تفتقده أبـدا. إنما تذكره فقط حينها. قرأت ما كتب بسطور الرسالة التي احتوتها الباقة.

<لن أعتذر لك بقدر ما أعتذر لنفسي كل يوم ندما على فقدك. تسـتحقين كل ما حققته بإبداعك. واستحققت كل ماانحدرت إليه

بأنانيـة حبي. أتمنى منك فقط مسـامحتي يوما إن اسـتطعت! لم، ولن أتجرأ على الوقوف ببابك إلا إذا سمحت. أرجوك فقط أن تعلمي أني ما فعلت ما فعلت بك أبدا. وإنما أنت من فعلت. كنت كثيرة الرضا مليئـة العطاء قوية المشـاعر رائقة الصفاء. أفسـدني تدليلك غاليتي. أنـت مـن جعلني أتصـدر قائمـة حياتـك، وأتقدم نافـذة أحلامك؛ لأسـمح، أو لا أسـمح لهـا بالعبـور. أنت مـن نصبتني عـرش قلبك المنيـع، وأردفتني بحصـن حبك المهيب ظلا، وظلالاً لأنفاسـك. لا ألومـك حبيبة عمـري. وإنما أعتـذر لنفسي عن مرارة فقـدك بعد أن تبدلـت نظرتي للحياة من بعدك. فهل تدركيني بنظرة ثانية؟> **انتهت الرسـالة. وبقيت أشرطة ذكرياتها – قبل، وبعد العاصفة – تدور بحسها؛ لتطـن عبارتـه الأخـيرة بالرسـالة. ترافقها. تكـرر دقاتها. وتنظـر إلى كل مافقـدت، وكل ما اسـتعادت، وكل مـا بقي لها بالحياة. بنظرة ثانية تسـأل ذاتها بذات العبارة: «فهل تدركيني بنظرة ثانية»؟**

خطوات على الرمال

جلست كعادتها متطلعة بنظرات خالية من كل معنى. نظرات خلت من روح الحياة. تمر فقط على المشاهد المحيطة بها بلا أدنى مشاهدة. تبتسم بلا ابتسامة. تتحدث بلا حديث وقد اعتادت مشاعرها الجديدة بلا غضب، و لا رضا. لا شيء يجمل مشاعرها بنعمة الإحساس وقد أصبح بالنسبة إليها نعمة جديدة قديمة تفتقدها. أفاقت من شرودها المعتاد بلا معنى على صوت ضجيج، وصراخ استغاثة، فانزعجت. نهضت من مقعدها. وسارت متعجلة وعيناها تجوب الشاطئ تبحث وراء الحشد المتزاحم من المصيفين. وبدا لها كأن الزمن عاد بها إلى الوراء. وكأنها تبحث فزعة عن طفليها طفليها اللذين أصبحا شابين يافعين الآن في قارة أخرى؛ خشية أن يصيبهما مكروه. لم يعودا ـ كما يرددان لها كل مرة يحدثانها فيها، ويداعبانها بأنها هي من عليهما رعايتها الآن – في حاجة إلى رعايتها.

فجـأة وهي تهرول في خطواتهـا المنزعجة ارتطمت بأحدهـم. وبدت أكثر انزعاجـا، وخجـلا، فتمتمت بعبارة غـير مفهومة؛ لتتفاجـأ أكثر بصوت هـذا الآخر وقد عرفته فورا. وكأن الزمن عاد بها فعلا إلى الوراء .انحنت مرتبكة؛ لتلتقط نظارتها الشمسـية، فإذا يده تسرع؛ لتسـبقها، فيقدمها لها معتذرا هو الآخر. تلتقي نظراتهم بلحظة تتبدد فيها كلماته المعتذرة؛ ليحل محلها دهشـة فرحة. تتأبط اسـتعادة توازنها، واسـتعادة زمانها معا بنظرة ثانيـة بعـد سـنوات. احتـوت دهشـتهما الفرحـة، وخجلهـما المضطـرب السـعادة. لحظـات بـدت لهـما عمـرا آخـر. نسـيا فيـه ضجيج الشـاطئ، وأصوات رواده، وكـرات الأطفال الطائرة، بل بدا لهما فقط صوت هدير البحـر، وأمواجه المتلاحقة تتقافز بفرحة ثائرة. تعانق سـعادتهما الخجلة. تعيد إليهما الحياة . نظر لها بابتسامة شوق رائقة العذوبة بسعادة لافتا عينيه لحظـة إلى البحـر الذي بدا خلفهما – كـما خُيِّل إليه – سـعيدا بلقائهما على شرفه مذكرا إياهما بأحديثهما الكثيرة، ومشـاحناتهما المشاكسـة. لقد كان ذلك البحر واحدا منها يوما. بدأ الحديث أخيرا بسـؤالها باسما بلا صوت يحمله إليها سـوى دقات قلبه المبتهجة، فتخيل نفسـه يسألها: «ألا زلت لا تُحبين البحر؟ إن كنت لازلت كما أنت فأنا أيضا كما أنا، وأكثر». هل كان

سـؤاله لها بـلا صـوت ؟ لِمَ – إذن – سـمعته هي بهذا الضجيـج الهائل في أعماقهـا؟ لِـمَ همَّت بالإجابة على سـؤاله بالنفي، والمقاطعة، والمشاكسـة، والاعـتراض، والقبـول، والسـعادة، والخجـل ؟ تزاحمـت بداخلهـا كل مشـاعرها المنفاة عنها من زمن بعيد منذ فراقهما. نظرت إليها شاردة عنه. لا تصدق أنه يقف أمام ناظريها الآن بعد فراق العمر الذي ظلل شعيرات رأسه السوداء برماد الزمن الأبيض، فأحالته رجلا خمسينيا بشباب وقور. وحلـت كؤوس مُره السـوداء بقلبها الأبيض، فأحالته رمادا بلا شـعور؛ ليـآتي هـو الآن يسـتعيد زمانهما بلحظة تعيـد إليها من جديد كل شـعور. تبادلا الابتسـام الوجل وقد علت قسـماتهما كل رغبات الحديث، وأسئلته الكثـيرة. كيـف أنـت ؟ أين كنـت ؟ ماذا فعلـت بك السـنون ؟ ألا زلت تذكـرني ؟ ألا زلـت تذكريـن ؟ وتوافـدت الإجابـات متلاحقـة تبـاري خجلهما الرصين بلا صوت إلا من دقات قلوبهما الفرحة. أنا بخير، لكني كنـت أنتظـر الحياة بقدومك. أنت – إذن – محظوظ إذ كنت تنتظر. أما أنا فقد يئسـت مـن الحياة بدونك. مـرت دقائق بدت لهـما كل العمر. وكلما تقاذفـت أمـواج البحـر الفرحـة بهما ألقت إليهـما ذكرى أخـرى من ذلك العمـر. تذكر هو عاتبا كيـف فارقته غاضبة رافضة إعطـاءه فرصة ثانية،

والرحيل معـه على الرغم من معارضة والديها لسـفرها، وإتمام زواجهما. وتذكرت هي الأخرى عاتبة كيف طاوعه قلبه على الرحيل مغلقا صفحة المحاولـة مـع أبيهـا تاركا إياهـا في صدمة الرحيـل. هدأت أمـواج البحر وكأنها تشـاركهما عتـاب اللحظة، والذكرى، ثم ثارت مـرة أخرى قاذفة إياهما برذاذ أمواجها؛ ليضحك بسـعادة مسـتعادة. قالـت عيناه بلهفة: لا بأس إذن. أنت معي الآن. ولن أضيع اللحظة. ترتسـم على وجهها الذي مـازال جميلا لى الرغم من مرور السـنوات ابتسـامته بسـعادته المسـتعادة. أجابتـه دقـات قلبها فرحـة: لا بأس إذن. أنـت معي الآن. مـا أجملها من لحظـة! كان يـود دعوتهـا إلى المـشي، أو الغـداء، أو ربـما كان الأفضل أن يدعوهـا إلى إكمال العمر معه. وكانت تـود ذلك، أو ربما كان الأفضل أن يدعوهـا إلى نسـيان العمر الذي فر منها معـه. كانت تتمنى أن تحكي له ما كانت تحكيه له دوما بخيالها. إنها لم تتمن أبدا نزع خاتمه من يدها، لكنه هو مـن انتـزع الحيـاة منها حين رحل غاضبا مقسـما لها بنسـيانه. وبـدأ حياته بدونها. وإنها حقا – كما وعدها – سـتظل أسـيرة حبه. ولن تجد من يحبها مثلـه. كانت تود أن يعلم أنها لم تتزوج، بل نُفيت. لم تنجب. وإنما كفلت بقلبهـا ولـدي زوجهـا. وأحبتهـما كأنهـما ولداهـا. زوجهـا كان يكبرهـا

بعشريـن عاما حـين تزوجها. وكان عليلا، لكنها لم تهتـم أبدا؛ فقد كانت تعاقب نفسها بتخليها عن حبها، ورفيق قلبها الوحيد. وكان اختيارها له عقابهـا المـزدوج لقلبهـا، ووالديهـا، وخلاصهـا – أيضا – مـن إلحاحهما المتزايـد على زواجها. ورحلت معه إلى الخليج. وعملت؛ لتزداد انشـغالا عـن ثورة قلبهـا المرتقبه؛ خوفـا أن يطالبهـا بما لا تسـتطيع، فقطعت على نفسـها طريق العودة بهذا الزواج الذي انتهى بعد وفاة زوجها بعام واحد تاركا لها ولديه ثروة قلبه. ظللت حياتها عشرين عاما بالمواسـاة، والحنان، والـدفء المتبـادل بين ثلاثتهما حتى فارقاها آسـفين؛ للدراسـة، والعمل، فاضطرت هي الأخرى إلى العودة من جديد إلى الإسـكندرية. منذ أشهر قليلـة قتلهـا صمـت الجدران يأسـا برتابـة اعتادتهـا. حتى شـطأن اللقاء القديم. عاشـت في وجوم اللا انتظار حتـى ثارت أمواج البحر رافضة أن تشارك في تأبين مشاعرها. واستعادتها جميعها في لحظة استعادت معها كل ذكريـات العمـر، فأعادتهـا من جديـد إلى الحياة. وتمنى هـو – أيضا – لو وافته الشـجاعة؛ للإفصاح، فيباغت خجلها بالمبادرة، فيختليَ أخيرا بتلك اللحظـة التـي يصلح بهـا خطأه القديم في حـق قلبه، وقلبهـا. لم يكن عليه الانصيـاع إلى مثاليتهـا الآثمة. نعـم كان يحبها، ويراها رائعـة، لكنها تلك

المثاليـة اللعينـة التي جعلتها ترفـض التمرد على والديهـا، وترضى بالفراق عنه. هي – إذن – آثمة. ولن يسمح لها بتجديد إثمها. وهو – أيضا – كان عنيدا غبيا؛ فأية كرامة مقيتة جعلته يرى مثاليتها تنازلا عنه، وتفريطا فيه؟! وكـم تسـاوي تلـك الكرامـة في سـوق التعاسـة الأبديـة التي عـاش فيها بدونها؟! وقد شعر في نفسه لحظة لقائها المفاجئة كأنه استعاد حياته الأولى، والأخيرة من جديد. ما عاشه دونها مع غيرها لم يكن أبدا حياة. لكنْ كيف سيخبرها ؟ وكيف يخاطب عقلها الجليدي بتلك المثالية الجوفاء؟! لا.. لن يخبرهـا. سـيخبرها فقط أنه لم يحب سـواها، وأنه حاول كثيرا أن ينسـاها، فكانت ذكراها تستأسـد أكثر بمخالب الزمـن، والحنين الدائم إليها. وأنه عـلى الرغم مـن كل علاقاته لم تقترب إحداهن أبدا مـن روحه التي كانت تحن شـوقا إلى مؤانسـتها، ومشاكسـتها. سـيخبرها عن سـنوات مخاطبته خيالهـا، ورغبته لقاءها، ومصاحبته طيفها، لكنـه لن يخبرها أبدا بما يفرقه ثانيـا عـن خطاهـا. نعم لقـد عـاد إلى موطنهم مـن جديد. وحـاول عبثا الوصـول إلى شيء يجمعه بها حتـى أتت خطواته إلى بحرهما الحبيب الذي كانت ترفض حبه، وتخافه. وكان يمازحها سـاخرا من إسكندريتها المزيفة غـير المحبة لمعشـوقها البحر. كـم أحب البحر دائما! ولابـد أنها أصبحت

تفعـل هـي الأخـرى الآن. لقـد جمعهما أخـيرا سـويا من جديـد. وبتلك اللحظة التي همَّ فيها بالحديث إليها سـمع صوتا يناديه من بعيد، فغامت ملامحة السـعيدة بوجهـه الذي امتلأ قلقاً. في لحظة واحـدة عاد كلاهما إلى الزمـن. عـاد؛ ليفيق من عـزم حلمه، وبهائه. بذلك الصوت الذي سـكن حياته صارخا منذ خمسـة عشر عاما محتلا دقات أنفاسـه إزعاجا ينازع فيه رغبتـه بالحياة. وعـادت هي؛ لترتطم من جديد بحائـط الواقع الحديدي، فتلتهب عيناها بلظى حرقته، فأدارت رأسـها ذاهلة ألمًا بنظرة ثانية أنستها سـعادة الأخـرى. ومثلهـا فعـل هو مرغـما وقـد أحاطتـه ذراع الأخرى. وقفزت إلى أحضانه طفلة بدت طفلته. بجوارها صبي آخر ناداه بسعادة:

ـ أبي! اسـتعادت خطوتها الطريق مبتعدة عنه متثاقلة متباطئة ذاهلة متألمة. لا تصـدق! كيـف فعلهـا؟! بدت لها الأصـوات من حولهـا كالصراخ في سرادق عزاء مقيت لقلبها المكلوم في حبه. شـعرت الآن فقط بهول فراقه. أفاقت من شرودها عن الحياة بتلك النظرة المسـتعرة ألما التي حملت لومها الشـديد له. وبدا لها تدافع الأمواج الثائرة سـخرية مقيتـة من صدمتها بما حملتـه لها الحيـاة بذلك اللقاء الـذي عصف بذكريات قلبها النفيسـة التي فقدتهـا لحظة واحدة. أما كانت تردد له دوما أنها تخاف البحر، وغموضه،

وغـدره، وملء أعماقه بالمجهـول ؟ لقد فعلها الآن. وتجدد البحر في غدره بنظرتها الدائمة له. وشـيئا فشـيئا اسـتعادت خطواتها قوتهـا؛ فهي القوية الأبيـة بمثاليتها، وكبريائها الذي لا ينحنـي، ولا يئن وإن عبس قلبها كل العمر. ابتسـمت شـفتاه بمرارة خجله وهو يرقب المها، وابتعادها الأثير. شـاعرا بدقات قلبه مغادرة معا. مجيبا نداءات طفلته، ومداعباتها، وولده، وزوجته التي لم يبد عيها كالعادة ملاحظة أيا مما يعتريه. وقد بدأت حديثا متسـارعا كيف أنهم قرروا مفاجئته بعد تأجيل رحلتهما الصيفية الخارج. وقـررا قضاء يـوم معه قبل سـفرهما. وأخـذت تتلو بصوتها الـذي اعتاد إزعاجـه قائمة مـن المهام، والطلبـات. عليه القيام بها مـن أجلها. في هذا اليوم الذي أتى لها نجده يسعف بها وقتها، ويجعلها تطمئن أكثر إلى النزهة الصيفيـة السـنوية التـي رفـض مرافقتهـم بها كعادتـه مفضلا العـودة إلى الإسـكندرية مرة أخرى هذه المرة. ولم تنس طريقتها المستفزة له في المقارنة والسخرية مما يحبه بالإسكندرية. تنهّد بضيق صدر. غادر قلبه مع حبيبته، وخطواتها الحزينة التي لم يخف عليه قوتها، وثباتها على الرمال بعد لحظات. وبـدا له صوت البحـر غاضبا من خلفه ثائرا على ضعفـه. وبدت أمواجه متوعدة له قاذفة إياه برذاذ الغضب. تصفع خذلانه قلبه من جديد. غربت

دنياه عن بصره وهو يتابع بعينيه المملوءة شـوقا أثر خطواتها على الرمال. وتمنـى لو تبعها، واسـتطاع اللحاق بهـا، لكنه بدا مقيـدا بخطوات أسرته المحيطـة بعنقه من كل صوب، واتجاه. وابتسـم لعزمـه المهزوم الذي بدأ، وانتهـى منـذ لحظات بمرارة. وتسـاءل إن اسـتطاع التغلـب على ضعفه، واتخـذ خطوته الحاسـمة التي تمناها منذ زمن بفراق أبدي. هل سـتقبل به حبيبته ذات المثالية، والكبرياء. حتى ولو أقسم لها مئة مرة أن ذلك إنصاف للجميـع، وأن ذلك الزواج هو مجرد كابوس أرقده عنوة في لظاه، وأضاع منـه كل حلـم. لن تسـمع. ولـن تقبل. وهـو لن يتجـرّأ على معـاودة ألمه برفضهـا له؛ لأنها سـتتنازل عنه ثانيـا بكبريائها الآثـم، ومثاليتها العنيدة. وسـتكرر إثمهـا. ويكـرر إثمـه في حـق قلبيهما. وبـدت الأقـدام الكثيرة متشـابكة الخطى على طريق الرمال؛ لتمحو خطوات بخطوات، ثم تركل الجميـع صفعات الأمـواج الثائرة بأحكام الزمن، ثـم رأت بالطريق قصر الفتـاة الصغيرة الرملي الـذي كان رائعا بالأمس وقد هدمته مياه الأمواج لحظة واحدة. وكم من قصور رملية قامت ببنائها الأحلام؛ لتتهدم بمرور الزمـن عليها كـما الامواج لحظـة واحدة. وقـد يحيلهـا إلى لاشيء، فتعود خاليـة الوفاض حتـى من أنس الذكرى، فتصبح بـلا معنى. وهاهي الآن

بعد مرور الزمن تسير حافية القدمين على الرمال وبينما كان قلبها يترنح متوسلا إليها بإلتفاتة أخيرة تلقي عليه بها السلام بلا لقاء كان عقلها يفند لها صفحات الذكريات آمراً إياها أن تطويها؛ فقد بدا في عينيها استحالة أن يجمعهما لقاء. جادلها كثيرا. لم أضاعت عمرا بأكمله تجلد ذاتها ندما، وحنينا لمن بدا لها أنه لم يكن أبدا مثلها وحيدا ؟! وتناثرت شظايا الذكريات على حائط دمعها المخفي. تباري شوقا عاندته، وكابدته رفضا، وألما. لم تملك له رداً سوى الانصياع إلى الفرار. لم تكن بحاجة إلى أن تصيبها حمى الضمير الغاضبة؛ لتفيق من سقوط قادم في هوتها إن لم تبتعد سريعا خطواتها على الرمال. وها هي ابتعدت بخطواتها كثيرا حتى بدا لها أنها نسيت كيف يكون المسير بلا عنوان. وبينما هي شاردة من الزمن أعادها رنين هاتفها مهديا صوت أحد ولديها إليها بكل الشوق، والحنو، والامتنان الصادق. يدعوها متوسلا من جديد إلى اللحاق بهما هو وشقيقه التوأم؛ لأنهما لا يستطيعان فراقها أكثر من ذلك؛ ليبتهج قلبها حبا، وسرورا، وتدرك أخيرا أنها لم تضيع عمرها هباء مثلما ظنت منذ قليل؛ فذلك الحب – الذي حمله قلبها دون أن تحمله أحشاؤها لهذين الولدين الرائعين، وطفولتهما، وصباهما الذي تفتح بيديها، ورعايتها ـ قد أثمر بقلبها بستانا فاتنا من أزهار الحب، والعرفان. وهي كانت ـ ولا زالت ـ محبة دائمة

الأزهـار. ولم تحـب البحـر أبدا. وقفـت لحظة مبتسـمة برضا، ثـم أدارت وجههـا إلى البحـر بنظرة أخرى متحديـةً. بدت لها أمواجـه متراجعة، فقذفـت بقدميهـا حفنة من الرمال تعثَّرت فيهـا خطاها، ثم مضت غير آسـفة أنهـا كانت الأرملة التي لم تتزوج أبـدا. وعلى الرغم من ذلك فقد حظيـت بأمومتها لأجمـل ولدين. ابتسـمت لقلبها الحزيـن. تربت على فقده بابتسامة مرار قد حلاها اعتياد الفقد. كظمت نزف حزنها المتدافع باسـتعادة صورة طفليه؛ لتتسـاءل بمراراة. لقد تعجلت الرحيل فرارا، فلـم تتبـين ملامحهـما. هل كانـا يشـبهانه ؟ أغمضت عينيهـا من جديد بصورتـه المرتحلة معهـا منذ الصبا. عليهـا تغلق قلبها بحنـو. وتداعب يديهـا قلادتهـا الصغـيرة القديمـة التـي كان يوما قـد أهداهـا. تواصل خطواتها على الرمال.

لقاء نادر

بعـد مـرور العاصفة التي كادت أن تعصف بكل مـا بقي له من قدرة على الصبر تلك التي غالب فيها شـدة مشقته في الإبقاء على زواجه بها آمنا مـن أجل طفليه، وشـدة رغبتـه في التحرر من قيود علاقته العابسـة معها. بعدها جلس متكئا على سعة تحمله. يتنفس ببعض الهدوء. يرتشف سكون غضبـة المترقـب للحظـات ضعفه وقد عقـد ذراعي رجولتـه وابوته حول صـدره. يواجه بهما كل ما يختلج بأنفاسـه من ضيـقٍ، وعبوس لروحه التي أتعبها خواؤها من أدنى قطرة صفاء. كان وحيدا هاربا كالعادة من جحيم تقريعهـا صبره، ونعته بالبرود. وحين مروا بالقرب من سـيارته مبتسـمين هانئين تعجب سـاخرا: أما زال هناك من يصدق ذاك الهراء؟! قاوم بشـدة رغبتـه الجنونية في صفع ضحكاتهم البريئة بحكايته العابسـة. لقد سـبقهم منذ سـنوات قليلة بذات الطريق، والمشـهد. كانت معه. هي تلك العابسة

دومـا. كانت مثل هذه الباسـمة الآن، بل كانت أكثـر صفاء. تذكّر كيف كان يغـترف الحيـاة من الحيـاة كل صباح، وكيف كانت شـعلة ابتسـامته الضحوكـة تنير طرقاته ثباتا، وتزرع أيامـه إرادة، وقوة، وكيف كان نادرا في زمـن عز فيه للابتسـامة بقـاء، وكيف كان يراها هبة مـن عطايا القدر. زفر ذكرياته في حسرة وهو يتذكر كيف تعلق قلبه الغض بها حبا، وكيف تخطـى عقله كل قصص من سـبقوه بذلك الرباط تسرعا، وفشـلا. وكان كل شيء معـدا؛ لسرعـة اللقاء. والتقـى سريعا بحلمه يحمـل معه روحه الباسمة دوما. وتوَّج رباط قلبه بها عبر الزواج. وها هو الآن بعد سنوات قليلة لازال في أوج شبابه يجلس وحيدا حزينا. خلت نظراته من كل بريق. وإن صادفته البسـمة فهي سـاخرة يعلو نظرتَها الزجاجيةَ التجهم. أصبح يـرى في كل قصـص الحب أضحوكة تـسرق العمر. ندم عـلى قصة حبه. لم يفهـم أبـدا كيف تحولت فتاتـه المحبة إلى تلك المرأة العابسـة، ولا كيف اسـتطاعت قتـل الروح في علاقتهـما سريعا وإن ظلت أنفاسـها المصطنعة تصلهـا بالحيـاة عبر تلك الورقة. صك بعقد ملكيـة يكتبه رجل غريب لا يدري عنهما شـيئا. يشـير إلى امتلاك تلك المرأة المتجهمـة حياته. تجبره أن يشـاركها تجهمها عر الرغم من روحه الرافضة لها. يتسـاءل: كيف كنت أحبها ؟! انتابته رغبة أكثر جنونا أن يلاحق ذلك الشاب، وسنوات عمره

الصغـيرة. بدا خاتـم رباطه اليمينـي بشريكته الصغيرة متفاخـرا في يديه. وبـدا معتـزا بثباته في إصبعه. يظهره كأنه رمز بطـولي بالانتصار بحبه. أما هي فقد جلسـت أمامه في رقـة، وخيلاء. مزهوة بنصفهـا الآخر. وخاتمه اليميني في إصبعها يتراقص سرورا. تحاول هي بارتباك خجل الإمساك به ثابتا في إصبعها بصعوبة تجعلها لا تكف عن تدليله دائريا وتلك الابتسامة لا تفارقها. خرج من سـيارته وقد تمكن منه غضبه من زوجته. واندفعت خطواتـه إليهـما. وجلس بالقرب منهم يسـترق السـمع مستسـلما لهجوم خلجاته المتعبة صبرا وقد استشـاط غضبا. كأنه كان يري نفسه منذ عشر سـنوات. يتمنى لو اسـتطاع إنهاء ذلك المشهد من بداياته. جلس في مقعد ملاصـق لمنضدتهـما. تفاجأ بذلك الحديث الدائر بينهـما. وتبيّن له أن ذلك الشاب لم يكن خطيبها، بل زوجها. وبعد لحظات تتابع ظهور عدة أزواج وقد علت وجوه الجميع تلك الابتسـامة التي بدت مثيرة لأعصابه المنهكة جدلا. حتى ظهر بينهم صديق قديم له. تعرّف إليه بسهولة لم يبادله الآخر إياها؛ فقد كان ذلك الآخر كما هو لم يتغير بملامحه سـوى قشـور ضئيلة. أما هو فقد تبدلّت كل قسـماته، فبدت عليه سـنوات عمـره الثلاثين كأنه بالخمسـين. ما جعـل صديقه لا يتعرف إليه في البدايـة. بعد دقائق خجلة مـن تذكيره لصديقه بنفسـه أطلق الآخـر زفرات التعجـب، والترحيب.

وقبل دعوته سريعا بمشاركتهم الاحتفال. تبددت ملامح الدهشة من نظراته. وخلت نظراته الزجاجية من عبوسها. وتدفقت ماء الحيوية، والدفء؛ للعبور مجددا من ثنايا روحه المتعبة. وابتسمت لهما بنظرة ثانية. وفي طريق عودته لم تتوقف روحه عن الابتسام بتلك النظرة الحانية نظرته إلى الحياة بعد مرآهم. أخذ يفكر كثيرا طويلا مغلقا كل روافد غضبه، ولومه زوجته. بعد تمام ارتشاف رحيق ابتسامة صديق الماضي، وأسرته. هل كان الخطأ كله بزوجته العابسة دوما، أم كان الخطأ بعدم توافقهما وعدم تفارقهما؟ لقد حاول كثيرا دون جدوى. أما هي فلم تحاول أبدا سوى أن تكون لمحاولاته صادمة. لقد تبيّن له أنه لا جدوى من البقاء دون جدوى، وأن هذا الرباط الذي يشبه الوثاق لروحيهما آن لهما التحرر منه. آن للحياة أن تعود؛ لتبدد عبوسهما. وما بقي من الحياة كثير. إن أرادوا فسيجمعهما. ابتسمت روحه كثيرا بارتضاء القرار سبيلا. سيعود إلى حياته أخيرا بنظرة ثانية تلك النظرة التي أهداها إليه لقاء ذلك الشاب وزوجته دون أن يدروا. علم من خلالها ذلك الفارق بين قصص الحب – الذي سبقه سكن المودة، وعلته رقائق الرحمة، وتناسق الأرواح بالتوافق – وبين قصص الوهم الذي سبقه الوله المراهق، وتسارعت دقاته الغضة، واعتلته زجاجية النظرة. لقد كان لهذا اللقاء بالشاب وزوجته وقصتهما الرائعة واحتفالهم الدائم بذكرى ارتباطهما وإحياء كل طقوسه – بسعادة

الوفـاق، وظلال البركـة – تتويجا، وتأكيدا لقصص النوع الأول. ولم تكن قصته تنتمي إلى هذا النوع أبدا. قرر إصلاح العطب بقصته التالفة، وإلقاء نفاياتهـا المحطمة مـن ذاكرته، والبحث من جديد عـن قصة أخرى تحمل فصولهـا خاتمته. قصـة لا تنتهي دون حياته. قصة العمـر كله. ربما لم يبذل جهدا مناسبا، أو أن جهده ضاع سدى في الاتجاه الخاطئ، فضاعت سنواته بلا طائل، لكنه الآن سيعيد ضبط بوصلته الحياتية. لا يهم من مع ستكون باقـي قصته. ربما تقاسـمه الوحدة باقي فصولهـا، أو تهاديه بأخرى لم يلتق يوما بها، لكن حياته لن تعود أبدا إلى سابق عهدها. وقد أعاد ذلك اللقاء الحياة إلى حياته بنظرة ثانية. وهكذا قص حكايته بنظرة ثانية تخلى فيها عن مفردات رسالته الأولى الغاضبة منذ أعوام إلى تلك الكاتبة نصيرة النساء. اعتـذر فيها عن سـابق هجومه عليها؛ لنصرتها الدائمـة حواء. أراد وقتها أن يريها كيف يمكن لحواء أن تكون ظالمة حينما تبدد كل أحلام آدم بالهناء وإن ظلمـت نفسـها وأطفالها. حينها تتحول طاقتهـا إلى طاقة هدم مدمرة عوضـا عـن أن تكون طاقة رفع، وبنـاء. بذلك تخرج دائـما خروجا مريعا عـن دورها المنوط بها من جنـة آدم؛ ليلقي بحبها في العراء. أجابته الكاتبة في الجريـدة وقتها في بابها الأسـبوعي الـذي يحمل عنوان «نظـرة ثانية» بما وصـل إليـه الآن بإرادته، ويقينـه بنظرة ثانية. واتضح لها أنـه لم يقتنع أبدا وقتها؛ لأنه ظل معتقدا تجنيها على غضبه بنصرتها الدائمة زوجته بوصفها

منتصرة دائمة للنساء. عادت؛ لترتسم على وجهها ابتسامة الحياة الدائمة التي تتدفق إلى روحها تلك اللحظات حينما يصل أصحاب الرسائل الحُيارى إلى مرفأ الآمان، والراحة. وتلتقي أرواحهم أخيرا رسائل القدر بإنصات، واهتمام. تأملت سابق غضبه الذكوري – الذي تلاه أمل طفولي – في رسالته الثانية باستجداء الحياة. وتساءلت ابتسامتها الحكيمة، وسنواتها التي علاها إرهاق الزمن، ومشيب العمر، وزخم الخبرات، والقراءات الحياتية، وتضاؤل الرغبات في الجدال: هل تظن يا صديقي أنَّ حواءك ستشاركك تلك النظرة الأخيرة وفاقا، أم ستُلقيك في بحر اللعنات ؟ كانت تعلم أن بنات حواء لسن ذات المرأة. وإنما هن طيف متنوع من النساء. لم تكن لتدافع عنهن على إطلاقهن، بل عن ذلك النوع الأنقى الأبقى منهن. لم تكن زوجته من بينهن كما اعتقدت، أو ربما هي منهن، لكنها عازفة عن البقاء. ربما استسلمت مشاعرها للتبلد، أو أرهقتها سنوات الجفاء. لم تكن متيقنة في نظرتها إلى تلك الحواء الغامضة، لكنها تيقنت من اختلاف نظرتها عن شريكها الغاضب؛ لذا فستدعوها إلى النقاش؛ لترى من خلالها جانبا آخر من الحقيقة، وتعلم هل ستقبل مشاركة آدمها نظرته الثانية، أم ستكون لها كلمات أخرى، وحقيقة أخرى، ونظرة ثانية.

أنا العابسة

جلست الكاتبة نصيرة النساء المعروفة شاردة بابتسامتها المعهودة التي امتزجت فيها مشاهدها الحياتية وسنواتها بتلك النظرة الإنسانية الثانية التي اكتسبتها بتعمقها الشارد دائما خلف حقائق الرسائل المطلقة؛ فلم تكن تقرأ رسائل القراء كما سطرتها مشاعرهم الغاضبة، أو الخاطئة. وإنما كانت لها دائما نظره ثانية. ترى بها ما ضلت قلوبهم أحيانا عن رؤيته، أو ربما عقولهم. ودائما تطلق فيهم تلك النظرة الثانية. لم تكن نصيرة النساء بمجرد وصفها امرأة، بل لم تكن نصيرة للنساء حقاً. لم تفضل ذلك اللقب الذي التصق بها. وإنما كانت فقط نصيرة للقلوب الجريحة التي ضلت الطريق إلى الحياة حين وهبت حياتها سواها، ونسيها الآخرون. كانت هي من تقوم بإعادة الحياة إليها، أو إليهم. لم تقصد أن تكون تلك القلوب نسائية قدر ما قصدت تلك القلوب الطريق إليها. حتى من خلال

رسـائل آدم ذاتـه إما نادمـا، أو مضللا، أو كاذبا. فـكل الطرق كانت تأتي إليها بحواء جريحة القلب لتضمده هي بنظرة ثانية. لم تدر كيف مر عليها الوقت وهي شـاردة خلف حواء العابسـة؛ فقدت أحدثت روايتها لبطل رسـالة «لقـاء نـادر» ردود أفعال قويـة. وانتشرت عبر وسـائل التواصل كالنار في الهشـيم. تبادلها الأزواج بلهفة، وسرعة. كأنهم يقدمون أنفسهم إلى الآخريـن بوصفهم جميعا ذلك الزوج الفاضل، والشـاب المقهور ظلما ذا الرجولة، والتضحية؛ إيثارا لقيمة بتلك الزوجة العابسةَ. لم يخف عليها طبعـا السـبب الأكثـر شـيوعا في انتشـار تلك الرسـالة بـين الأزواج على صفحاتهـم الاجتماعية؛ فقد كانت تعلم جيدا أن هؤلاء إما خائنون، وإما أنانيون متسلطون، وإما طيبون. أما الخائنون فيضعون تلك الرسالة ستارا خفيـا تتخفّـى خيانتهـم وراءه؛ ليقدموا أنفسـهم في صـورة الضحية أمام العابثات العابرات بإلقاء اللوم على العابسات الزوجات بالطبع. وفي ثنايا هذه الرسالة رسالة ضمنية أخرى مفادها: أنا حزين. أحتاج إلى وجودك، لكنـي لا أسـتطيع ترك زوجتي. وأمـا الأنانيون المتسـلطون بطبيعتهم فلا يعرفون سوى لهجات التهديد، والوعيد، وإلقاء التعليمات كأداة شرعية؛ للاحتفـاظ بنمـط حياتهـم منتظما بتذكـير الزوجـات أبدا بإحـكام صمام الأمـان حول نفسـها. وإلا... وأما الأزواج المخلصـون المحبون المهتمون

معتدلو الطبيعة أسـوياء السريرة فلن يضعوا تلك الرسالة على صفحاتهم أمـام الجميـع؛ لقصف جبهـات الزوجات، بـل سـيتوجهون مباشرة إلى الزوجـات؛ لإفـراغ صدورهـم مما علق بهـا في أي موقف؛ حتـى لا يعلو حاجـز الصمـت، والجفاء، ويصبح جبلا يسـقط علي أحدهمـا، أو عليهما معا يوما ما. وصلت اليها مئات الرسائل الطويلة بحكاياتها، والتعليقات الغاضبة، أو الداعمة الرسالة. قالت إحداهن:

<أنـا تلك العابسـة التـي اتهمهـا زوجها بالعبـوس، والتجهم في وجهـه. حتـى أفقدتـه سـنواته، ونسي شـبابه؛ ليفر منـه سريعا في الثلاثـين. ولا يتذكـر كل هـذا سـوى في لقائـه النـادر بتلـك الأسرة السـعيدة. هل تصدقين كاتبتي المفضلة هذا الهراء، والتضليل ؟! هل يُعقل لرجل يمتلك أي قدر من المشـاعر تسـيان ذاته إلى هذه الدرجة بدعـوى التضحيـة حتى تفاجئه الأقـدار بلقاء يعيـده إلى ذاته بعد أن فرت سـنواته؟! أنـا مثله بالثلاثين. وكنا زمـلاء بالجامعة. وكانت لنا قصة رائعة طالما داعبتُ قلوب صديقاتي بإعادة فصولها عليهن. وبعد تخرجنـا تم الـزواج سريعا بمدخرات والدته حتـى نفاذها من أجله. وكان كل شيء بأفضل حال. لم يكن ينقصنا سوى الحصول على عمل مناسب له؛ لنكمل به الحياة شاكرين سعيدين بوالدته الودود المتفهمة،

وتزويجها السريع لنا. بعد الزواج بأقل من عام وجدت نفسي وحيدة تماما. تغير مقر عمله خلال العام الأول أربع مرات. وكان يرهق كثيرا فيه. ويعود متعبا في منتصف الليل كل يوم. أما يومي الأجازة فكان يقضي احتياجتنا متكرما علي بوقت أصاحبه فيه متثائبا يستبق الوقت إلى النهاية متمنيا الراحة، والنوم. وذلك كان مبلغ أمله، ورضاه الأسبوعي. وكلما عاتبته برقة كان يعتذر بدعوى الإرهاق المضني طوال الأسبوع. كنت أعذره دائما، وأشفق عليه من عمله الذي يخرج إليه فجرا، ثم يعود عند منتصف الليل، لكني مع الوقت ضجرت. خاصة بعد انتقاله إلى مدينة أخرى بعد نهاية العام الأول؛ ليعود إلي في نهاية الأسبوع بنفس الطريقة المضجرة. أصبحت وحيدة تماما. في العامين التاليين حاولت إشغال نفسي بطفلتي، والاعتياد على تقبل ظروفه، وشكر الله على طيبته، وإخلاصه، والإحسان إليه – كما كانت تنصحني والدتي – بمداومة الاهتمام؛ حتى يعوضني هو راضيا حينما يسمح له وقته. وحذَّرتني من إشعاره بالذنب تجاهي؛ لأن الرجل – كما تقول أمي دائما لي – طاقة صبره ليست كالمرأة، ولا تفهمه مثلها. حاولت كل ذلك كثيرا. مر الوقت سريعا حتى توقفت تماما عن كل محاولاتي بعد العام الخامس. كنت قبلها أتوقف، ثم

أعـود حين تلحظ أمي تجاهلي الاتصال خـلال يومي كله إلا مقتضبا عنـد الـضرورة، فتشـعر بحكمتهـا أننـا لسـنا على مـا يـرام، فتعاود نصحـي. ولا تكتفي حتى أسـتجيب إلى محاولتها. تكـررت الأمثلة. وتكـرر أدائـي حتى أصابني الملل مـن إلقاء مشـاعري في الصحراء، لكنـي كنـت أنصت إلى أمـي دائما، وأحـترم حكمتهـا. إلى درجة أنه اتهمني ذات مـرة في معاتبتي الهادئة له أنني طفلة مُدللَّة من المحيطين بهـا. أنني شـخصية تحتاج دائما إلى تذكـير والدتها لهـا بواجباتها حتى تقـوم بها. وكان ذلك رده على شـعوري بالخجل مـن بروده معي. ما دفعنـي إلى التصريح غاضبة: لولا أمي ما اتصلت بك، ولا اطمئننت عـلى سـلامة وصولك. ظللنـا هكذا حتى ذلـك اليـوم. اتصلت به؛ لأخبره أمرا هاما يخص ابنتنا، وتقديم الأوراق إلى المدرسة. والحقيقة أني كنـت بهـذه المرحلة أتـذرع الحجج؛ لكـي أتصل به قليلا بسـبب اعتيادي بروده، وإهماله لي؛ لأنني كنت ما زلت أكن له المشاعر نفسها التي فقد هو الشـعور بها في فرط انشـغاله بعملـه، ونجاحه، وتأمين الحيـاة الكريمة لنا. ذلـك؛ حتى لا تتهميني بالإجحـاف في حقه كما كانـت تتهمني والدتي الحبيبة وهي تحـاول دائما الدفاع عنه أمامي. في

هذا اليوم رد على اتصالي، لكنه لم يسمع صوتي. نسي إغلاق الهاتف، لكنني بقيت؛ لأستمع إلى ضحكات زوجي الرائعة. يا للهول! لا زال زوجي يستطيع الضحك! كانت الدهشة هي شعوري الأول. بينما كان التحفز هو الشعور الأقوى. إلى من يطلق هذه الضحكات؟ بعد ثوان أجابتني ضحكات رجولية متتالية الربت على كتفي غضبي ودهشتي. وظللت أستمع إليهم فترة. لم أجد ما يشين زوجي. وإنما وجدت ما زاد من حنقي. زوجي يستطيع الضحك! وجد وقتا له في زحام عمله المزعوم! يتناول الشطائر مع زملائه ضاحكا! والمزعج أكثر أن كل مزاحهم كان مملًا بلا شيء يضحك أصلا إلى تلك الدرجة. أكانت تلك الضحكات مجرد سعادة بالوقت، والصحبة، أم أنها - كما بررت أمي معاتبة لي استكثار الضحك على زوجي - ضحكات أزواج مرهقين بالعمل، ليستقطعوا الوقت بها، وينفّسوا عن ذاتهم ؟ لكني هذه المرة سقط شيء مريع داخلي لم أفهمه. على قدر شوقي إلى ضحكات زوجي قدرُ غضبي الشديد منه، وشدة خجلي أمام نفسي؛ فقد تبيّن لي هذه المرة أن زوجي لم يعد يحبني. لم يكرهني، لكنه فقد كل اهتمام بي شيئا فشيئا حتى اعتاده. كما اعتاد إهمالي، والشعور بي. مل الحياة بصحبتي. لم يكلّف نفسه عناء معاودة

الاتصـال بي، أو النظـر في هاتفـه؛ لكي يـدرك مدة الوقـت الذي بقيت فيـه على الهاتف أنتظـر انتهاء ضحكاته الجميلـة، وبمزاحهم الممل. على الرغـم من كل غضبي كل غضبي وحزني وألمي من إهماله فإن ضحكاته بقيـت في أذني جميلة. بعد ذلك توقفت تماما عن إزعاجه، وإزعاج نفسي بإهماله. كنت متأكدة دوما من إخلاصه كما كنت متعذبة من إهماله. بعد أربع أعـوام أخرى انتقلنا؛ للإقامة الدائمة معـا أخيرا. بعد وفاة والدتي الحنون، ووالدته الودود. تحسـّنت أوضاعه المادية كثيرا؛ لنتفاجأ بالحياة معا. الزوج البطل الناجح في عمله. المخلص لزوجته. المثالي في أبوته. التعـس في حياتـه مـع زوجة مثـلي. الذي لم يكلف نفسـه يومـا عناء الاهتمام بابتساماتها. صرت أنا المخطئة، وأنا العابسة.>

قامت الكاتبة بالرد الفوري على صاحبة الرسالة:

<أثـارت رسـالتك الرقيقة غضبـا كثيرا عزيـزتي. واختطفتني بقوة ككاتبة؛ فأنت من ذلك النوع الذي أسـعى خلف قصصه دائما. نعم أنـت مخطئة عزيزتي، ليس؛ لأنك عابسـة، بـل؛ لجعلك حياتَك عابسـة. لقـد صببـت كل حبـك، واهتمامـك عزيزتي عـلى زوجك، وأحطـي حياتـك به. وحينـما لم تجدي الاسـتجابة المطلقة لمشـاعرك

القويـة ورغباتـك بـه أطلقت مشـاعر الغضـب؛ لتجـول في قلبك، وتـترك لك تلـك الـبرودة، والجفـاء، والعبوس. لاألومـك؛ لحبك زوجـك، لكني ألومك؛ لفـرط حبك له. ما جعـل كل حياتك بهذه الطريقة الخاطئة. لا تغضبي مني عزيزتي! فأنت فعلا مدللة. نشـأت في بيت حنون لأم رائعة. واسـتوى قلبك على مشـاعر الود، والحنان، والتواصـل. وقد كانت رائعة أيضا مع زوجك بالجامعة. حتى ظننت أن الحيـاة كلهـا كذلك. وليس هذا طبيعيا، ولا منطقيا؛ فلكل شـعور سـقف وجـداني. إذا وصل القلـب إلى منتهاه صار بلا زيـادة، بل ربما يتعـرض إلى النقصان إلى حـد الخطورة بالانتهـاء إذا ما تم الانتقاص التنـازلي من قـدره بمداولة الأخطاء؛ لذا فـإن الطريق الأصوب هو الحفـاظ عـلى اسـتقرار تلك المشـاعر بسـقفها جميل العـلا، والتطلع إليهـا دائما باتـزانٍ، ونضوج الأفعـال. قلت دائـما: إن قصص الحب قبـل الـزواج خيـال أقرب إلى الخيـال. لا أفضلها؛ فهـي في الأغلب العام أوهام. دقات قلوب متسـارعة. وصور قلبية خاطئة للشريك، وللحياة. أما تلك القصص التي تنشأ بعد الزواج – بحسن المعاشرة، والسكن، والمودة، والرحمة – فهي الأكثر نجاحا، واستقرارا، وثباتا، ومتعة أيضا. لا تفارق صانعيها؛ لأنهم لم يستبقوا الزمن، ولا خالفوا

أطـرا شرعية. وانـما أبقوا كل شيء في حينـه إلى حينه؛ لتجني قلوبهم أجمـل حصـاد. ذات التفاصيل الدقيقة التي ينشـغل بها المحبون قبل الـزواج سـعداءَ بها قد ينتهي الاهتـمام بها، أو يفـتر في أي وقت بعد إتمام الـزواج بدعـوى الاعتياد، والانشـغال. والحقيقة أنه الشـعور بالضـمان، والامتلاك. وهو الخطأ الثـاني في نظري؛ لأن الخطأ الاول هو استنفاذ تلك المشاعر بإطالة الخطبة. أما أنت وزوجك فقد بدأت قصتكما بمشـاعر المراهقة التي لم يختبرها الزمن، ولا أوقفتها قواعد. لا تغضبـي! أعلـم أن كل شيء تم عـلى مرآى الجميع، ومسـمعهم. وكانـت علاقتكـما أشـبه بخطبة توجـت بخطبة في عامكـم الأخير، والزواج بعده بأشـهر بدعم الأسرتين طبعا، لكنها لم تتوج بالنجاح، ولا الاسـتمرار كـما كانـت؛ لأنكما لم تدعما أنفسـكما. لقد اسـتبقتما الزمن، والأطـر الشرعية عزيزتي بلا نضوج. ومـا أقصده أن النظرة الشرعيـة قد تَخَلق ذلك الشـعور بالانجـذاب، أو الألفة، أو الراحة، أو حتى الموافقة بإعطاء ذلك الارتباط فرصة بالخطبة. والاسـتخارة هـي المتممـة تلك النظرة، أو المنهية لها. أتعجـب كثيرا ممن يتحدثون عن قصـص النظـرة الأولى، وانجذابهم مـن أول نظـرة، وإنكارهم للنظرة الشرعية. في الحالتين يحدث الانجذاب؛ لتماثل صورة الآخر

مـع تلك الصـوره الفكريـة الجاذبة بالعقـل. الفرق بينهـما هو مدى خطـأ الطريق أو صوابه بعـد ذلك. علميا وجد باحثـون بريطانيون أن هرمون التيستوسـتيرون يقل عن معدلاتـه الطبيعية عند الرجال مـع الوقوع في الحـب. بينما يزداد عن معدلاته الطبيعية عند النسـاء. وفي دراسـة أخـرى اكتشـف باحثون بجامعـة " لنـدن كوليدج " أن الوقـوع في الحب يؤثر على دوائر رئيسـية في المخ. وتوصل الباحثون إلى أن الدوائر العصبية التي ترتبط بشكل طبيعي بالتقييم الاجتماعي للأشـخاص الآخريـن تتوقف عـن العمـل عندما يقع الإنسـان في الحـب. وقـال الباحثون إن هـذه النتائج قد توضح أسـباب تغاضي بعض الأشـخاص عن أخطاء من يحبون. إضافة إلى وجود مركبات كيمايئية تفرز بشكل طبيعي وهي:

- **Phenylethylamine**

فينيليثيلامـين: مركب أميني متواجد بشـكل طبيعي في الدماغ، وبعـض أنـواع الأطعمـة كالشـوكولاتة. يعتـبر منبّها عصبيـا يماثل المنشـطات بتسـببه إفراز الدوبامين، والنورإيبيفيريـن. كما وجد هذا المركـب في الجسـم عند وقوعـك في الحـب؛ إذ يكون مسـؤولاً عن جنون الحب، والهيام.

- **Norepinephrine**

نوريبينيفرين: الشعور بالراحتين المتعرقتين، والقلب الخافق. عندما يسيل فينيليثيلامين تحرر هذه المادة.

- **Dopamine**

دوبامين: ناقل عصبي. يبدو أنه يرتبط باختيار الشريك. وجدت دراسة لجامعة إيموري أن فئران الحقل تختار شركاءها اعتمادا على تحرره؛ إذ عندما حقنت إناث الفأر به بحضور ذكر محدد استحسنت اختياره من ضمن مجموعة فئران لاحقا.

- **Oxytocin**

أوكسيتوسين: يطلق الدوبامين تحرر أوكسيتوسين المسمى "هرمون العناق". يحرر أوكسيتوسين عند التلامس عند الجنسين، وأثناء المخاض، والرضاعة الطبيعية عند الأمهات.

- **Testosterone**

تيستوستيرين: بالرغم من الاعتقاد بأنه هرمون ذكوري فإن كلا الجنسين يفرزه.

- **Endorphins9**

إندورفينز: يكتسب الدماغ تحمّل منشطات الحب. ويبدأ عندها بتحرير إندورفين. كيميائيا شهر العسل ينتهي من ثمانية عشر شهرا إلى أربع سنوات. هذا ليس سيئا تماما؛ إذ يرتبط هذا المركب الكيميائي مع الشعور بالراحة، والارتباط. وهو مثل المواد الأفيونية. تهدّئ القلق. تخفّف الألم. وتحد من التوتّر. وتلك الكيمياء قد تحدث بصورة خاطئة عن طريق الوهم، والسذاجة، والتسرع بمخالفة قيم أخلاقية غير مكتملة بصحيح الدين. تنتهي بصدمات، وفشلٍ. بعد الزواج، أو قبله.

ومن هنا تكمن حقيقة انتهائها سريعا إلى درجة الانتهاء كأنها ما كانت .أما تلك العلاقات الآثمة – شكلا، ومضمونا – فإذا صادف أحد طرفيها المكر، والخبث بالآخر، وإشعاره الدائم بالنقص أمامه، وتفوقه عليه. ترتبط به تلك الكيمياء دائما في خيال الآخر الأقل إدراكا لطبيعة شريكه الخبيثة المستغلة له. ويتأرجح أمامه – رفضا، وقبولًا – وجوده بحياته. وهذا ما يحدث عند خيانة الزوج زوجته بأية صورة مع إحدى الخَبِيثَات – من يجدن اللعب دائما على وتر الإثارة لدى ضعفاء النفوس من الأزواج – ذوات الخبرة المقيتة به، وبسواه. وبشكل ما يعرف الزوج ذلك. ولا يضيره الاستمتاع

بتلك اللذة الوهميـة مادامت بعيدة عن معرفة زوجته بها. وقد يصل به الأمر إلى الانفراط في التوهم بارتباط كيمياء تلك المشاعر مع تلك الخَبِيثَات التي تظل بين صعود، وهبوط. ذلك؛ لأن الخَبِيثَات ذوات خـبرة فدائما ما تحيط ذاتها بسـياج من الغمـوض المثير. وهذا بعكس الزوجـة ذلـك الكتـاب المفتوح أمامـه بوضوح. ولا يسـهُل امتلاك تلـك الخبيثة. ويسـهل عليهـا التلون دائـما أمامه، وإغـواؤه بالحيل، والخـداع، والإثارة العصبية لإحساسـه. وكثيرا ما يفتر اهتمام الزوج بتلك الخبيثة، ثم يعود إليها؛ بسـبب الملل، أوالفضول؛ يعود لمعاودة الاهتـمام بها حين تتقن مراوغته، أو إثارة انتباهه. فاذا صار التواصل بينهـم باعتياد فقدت مشـاعره جذوتها، وفر اهتمامـه؛ لتفتر العلاقة، فتفطـن لذلك شريكته الخبيثة، فتعمل على إثـارة اهتمامه من حديد، فتختفي، أو تمرض، أو تشـعره بالذنب. مع الحفاظ على عدم المبالغة في ذلـك، وتـرك ما يربطه بها قائما. ودائما ما تطلق في نفسـه الشـعور بانفرادهـا، وتميزها، وإحاطتها بالكثيرين من المعجبين. وعلى الرغم مـن ذلـك فإنـه الأول لديها. وهذا مـن أخبث الحيل النفسـية المثيرة الذكـورة الشرقيـة عمومـا المرضيـة غرورهـا الذكـوري. المضحك بالأمـر أن تلـك العلاقـات الآثمـة – أيـا كان عمرها الاسـتمراري

– تنتهي سريعا لو تحولت إلى زواج حقيقي كامل. أو مجرد معرفة الزوجة بشأن تلك الدراسات بكيمياء المشاعر وهورمونات الطبيعة – أيا كان مدى صدقها التام ـ ليست مرجعنا الوحيد؛ فوجودها ليس مرتبطا باستمرارها، بل بنبلها، وصدقها. ذلك أن الله يخبرنا أن الخبيث لا يستوي والطيب؛ فنحن من نختار إعطاء تلك المشاعر، وانسجام الكيمياء مع شريك خبيث مشؤوم الوجود، أو طيب القلب، والروح. بل إن قيمنا الدينية ـ التي تمثلت في سلاسةٍ، وعمق فكرة الخلق الأساسية للجنسين ـ قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ فإذا عدنا إلى رسالتك عزيزتي فأنا أطلب منك شيئا واحدا. واجهي زوجك بثبات برغبتك في تغيير طريقة حياتكما! ابحثي لنفسك عن أي عمل تنشغلين به ولو بمنزلك! أكثري من الاهتمام بنفسك بكل وجه. ليس من أجله، بل من أجلك بالأساس؛ ليعود إليه كنتيجة. ابدئي بتغيير طريقتك في التعامل مع التفاصيل الحياتية، فاجعلي من نفسك فاعلة أكثر! لا يعقل أن تكرّسي حياتك في انتظاره دون أن تفعلي لنفسك شيئا، وتتوقعي النجاح بحياتكما! أنكما زوجان لهما ولدان يجعل مسؤوليتكما مشتركة هامة في إنجاح زواجكما، لا مجرد استمراره.

وأنكما في أوج شباب العمر يجعلكما حقا أقدر على استعادة الشعور به. وذلك بالاهتمام بالتفاصيل من جديد كأنكما ببداية الزواج. لكن بصورة طبيعية دون افتعال. بأشياء بسيطة، لكنها جميلة. تبتسمين بتصرفاتك، واهتمامك. ويبتسم بتصرفاته، واهتمامه. لا تنسي أن تيقنك من إخلاصه الدائم لك على الرغم من شدة الجفاء بينكما إثبات لرجولته، وخلقه الطبيعي! ومثل هذا الزوج عليك بإصلاح طرق وصالك معه فقط؛ لأن مثله لا يخون. وإنما يأتي إليك بكل اتزان، ورجولة مسؤولة؛ ليخبرك باحتياجه إياك فور تنبُّهه إليه بعد طول انشغاله الخاطئ طبعا. وعليه أن يعمل على إصلاح الطريق معك أولا! وإذا عجز عن ذلك ـ أو عجزتما معا ـ فسيشاركك القرار، والحرية، والاختيار. ولن يطعنك في ظهرك، أو يعطي نفسه حقا في الخفاء يحرمك من وجوده بحياتك. وسيكون اختياره إما استعادة السعادة معك بالحصول عليها كأسرة، أو الفراق بموافقتك، والإحسان إليك وطفلتيه، والقيام بمسؤوليته كاملة فاتحا لك الطريق؛ لتواصلي الحياة مع شريك آخر قد يكون هو مجددا. لكن بنظرة ثانية بعد مرور العاصفة. فإذا حدث أن كنت بطلة قصة «لقاء نادر» فأعطي نفسك وإياه فرصة أخرى بنظرة ثانية.>

العابسات ينفجرن غضبا

كانـت أصـداء رسـالة «لقـاء نـادر» – ومـن بعدهـا «أنا العابسـة» – لا زالت تتواصل بقوة، وجدال محموم بين الدفاع، والهجوم المسـتمر مـن جانبـي الخلاف المعتاديـن. ظل كل زوج يرى نفسـه ذلك البطل وإن اختلفـت التفاصيل. ظـل العنوان لديه كما هو؛ فهكذا الزوج الشرقي هو بطـل بعين عقلـه بكل الأحوال. تمامـا مثلما ظلت كل زوجة ترى نفسـها تلـك الضحيـة. وتدمـن جلد ذاتهـا بمواصلـة تقريعها بالإهمـال؛ لتعاود الهجوم على ذلك الزوج ناعتة إياه بصفات الجاني، والجلاد. دون أن تدرك أنهـا هي ذاتها مـن قدمت له نفسـها في دور الضحية المجنـي عليها. وهي – أيضا – من قدمت له السـياط. وصلت الرسـائل العديدة إلى الكاتبة، والتعليقـات السـاخرة المتبادلـة من الجانبين بـلا انتهاء؛ لتعيـد الكاتبه إلى

طاولة المشاحنات الجدالية بين آدم وحواء رغما عنها، لكنها جمعت أكثر تعليقات العابسات اتفاقا؛ تخففا من نزعة الجدال المعهود. وقامت بنشر مقتطفات منها؛ لإلقاء الضوء على قلوب العابسات الغاضبة عندما انفجرن غضبا. قالت إحداهن:

<أخبري تلك العابسة أن عليها حمد الله، وشكره على ذلك الزوج المخلص المُكد في عمله حتى وإن لم يكن لها نصيب من الحياة معه سوى الإخلاص، وأن تحاول استرضاءه، واستعادة رضائه السابق بأي ثمن؛ فأنا زوجة لزوج لا يعرف من واجبات الحياة سوى التذمر، والسخط الدائم بكل شيء، وكل وقت. لم أعد أذكر كيف يكون شكله بغير تذمر منذ أن سعيت باستماته أدهشت مدرائي قبل سبع سنوات من نقل نفسي من مكان عملي معه المجاور إلى منزلنا العابس؛ لأضيف إلى كاهلي عبئا جديدا متواصلا يوميا يزيد عن الساعتين ذهابا، وإيابا. أفسح لصدري به متنفسا بعيدا عن كلماته اللزجة مع زميلاته، وإحراجي الدائم حين أُرى وأنا أكتم ضحكاتي الهازئة الساخرة من ذلك المستظرف. كان يوما ما فارس أحلامي. وعدني بالسعادة في ذلك المكتب اللعين الذي كان شاهدا على ذات الزوجة – التي كنت أراها رومانسية – وذاك الاستظراف الذي كنت أراه خفة ظل، وذلك الاستهتار الذي كنت أراه مرحا،

وتلك الصبيانية السطحية التي كنت أراها «شقاوة»؛ فقد اكتشفت ببساطة أنني كنت عمياء، أو ربما أنني عندما شفيت من وهم حبي له توقفت عن رؤية عيوبه صابغة إياها بالمبررات. وإنما فقط رأيته كما هو مجرد طفل صغير عابث يدمن اللعب بلا انتهاء. وحين يضطر إلى إنهاء اللعب قليلا – لأداء بعض الواجبات – فإنه يقوم بها ساخطا بلا إتقان. لذلك كان زوجي لاعبا ماهرا دائما خارج المنزل بالعمل، والنادي، والمناسبات، وكل مكان بعيد عن المنزل الذي يعود اليه كسولا. لأي شيء يطلب منه عجولا. لأي شيء يريده. يصرخ عابسا في وجوهنا في غير أوقات العبث الرسمية حسب التوقيت اليومي لعودته الطبيعية لحقيقته بالمنزل. وماذا فعلت أنا؟ لاشيء. فقط فررت من وجودي معه بالعمل حين أظلمت صورته في عيني بعد أن أظلمت في عقلي. وخشيت أن تظلم – أيضا – في قلبي، فأضطر إلى الفرار من المنزل في قرار لن يدعمني فيه أحد .نعم فقدت اهتمامي به تدريجيا حين توالت صدماتي فيه تصاعديا. حتى مللته، وزهدته، وأصبح خواء في نظري. أتعلمين أيتها العابسة؟! أنت محظوظة مرتين: أنك مازلت تُحبين زوجك، وأنه يستحق هذا الحب. فان كان هناك خطأ فهو خطأ مشترك جدير بالإصلاح، لا الرحيل، أو النواح .تقبلي نصيحتي! وأعيدي حمد الله، وشكره مرة ثانية!>

كانت هذه إحدى رسائل العابسات اللائي انفجرن أخيرا بالغضب؛ ليعلِنَّ عن أسباب غضبهن. بالبداية استفزت الرسالة دهشة الكاتبة المستنكرة؛ لما اعتبرته هجوما من امرأة على مثلها إلى درجة وصف الإخلاص بالحياة والعمل من جانب الزوج منحة شرفية نادرة، لا حقاً طبيعيا، وخلقا طبيعيا أيضا، ثم أدركت البعد الأعمق للرسالة، فتركت التعليق عليها إلى النهاية. وتابعت إعداد الرسائل؛ للنشر.

قالت إحداهن:

<عزيزتي المرأة! قبل أن تكوني الكاتبة أستحلفك بالله! هل تصدقين أنه يمكنك إصلاح مجتمع بأسره بحفنة كلمات ؟! هل يمكن محو أمية أجيال كاملة من النوعين ببضعة نصائح لايستطيعون قراءتها من الأساس؟!>

تبادر هذا السؤال إلى ذهني وأنا أشعر بإحباط القارئة؛ لذلك عدت إليكم بهذا السؤال. إنها أمية فعلا، لكنها ليست أمية قراءة، وكتابة الكلمات، بل أمية العقل عن الإدراك، والقلب عن الإحساس، والضمير عن المحاسبة. إنها أمية القراءة فعلا، لكن قراءة الأفعال، وكتابة ردودها المناسبة. أمية جعلت من الرجل الشرقي طاووسا، ومن كل الشرقيات

الفاضلات نعاما. لا يمكنهن سوى أن تكن نعاما في حضرته. وإلا شعرت ذكوريته بالخطر، وهبت عواصف غضبه الرعدية بالويلات، وبرقت صفحات غروره باللعنات. بل سأزيدكم إن أردتم – من أبيات العجب، وسطور الدهشة – ما يكفي أن يملأ صفحات، فيجعلها مجلدات. من قصص الشرقيات أنفسهن أكثر من يظلمن أنفسهن، ويطلقن أبْواق الكبر الأجوف في نفوس ذكورهن منذ الأزل. حتى انتفخ المصنوع بعمل الصانع، وفاض الكيل عن كل اتزان. عن ظلم المرأة للمرأة أتحدث. عن إفساد النشأة من البداية. عن ذرع النبتة المعوجة داخل الفطرة السوية حتى النهاية بتحريف مسار الرجولة عن مدارها، وخلق مسخ أجوف بعقل الوليد يُدعي «أنا رجل». عن تلك الأم الشرقية أتحدث. وياله من حديث موجع! لن أسهب فيه، لكني أتساءل فقط: لِمَ لم يعد بيننا أمثال «خالد بن الوليد» أو «صلاح الدين»، أو أي من شركائهم الكثر من الأبطال الحقيقين ؟! أين ذهب العلماء، والمفكرون، والمصلحون، ونظراؤهم؟! كيف التوي سقف الإبداع، والتفنن عن الالتزام شيئا فشيئا؛ ليهوي ساقطا على متلقيه بدعوى التحرر؟! كيف أصبح المُعَلِم تاجرا، والتاجر بائعا، والصانع مُستَهلِكا لقدرة شعب أصبح كله مُستَهلكا؟! كيف

نضبت من الحقول زروعها، ومن الديار ثمارها ؟ بل كيف ندرت الأشجار بوجودها، وأصبحت حتى المياه غير صالحة ؟! وبعد ذلك أتساءل: لِمَ تبدلت أحلام الفتيات؛ ليصبح الفارس هو ذلك اللزج لزج الكلمات، والنظرات ؟! لِمَ لَمْ يعد بطلها هو ذلك الرجل بمعنى الكلمة، بل ذلك المُتقن اللعب بكل كلمة راقص الكلمات عازف الملذات؟! هو من يتفنن في إسباغ طاووسيته على سذاجتها؛ ليجعلها تشعر بالتميز الأعمى، وتفيق من الوهم على بحر من الخيبات.. تقافزت السنوات الأخيرة سريعا؛ لتمحوَ كل أوجه الشرقية المميَّزة، وتوصمها بتلك المسوخ المهجنة من سوءات الغرب، والشرق؛ لتنزع عنها هويتها، وتبقيَها في حالة مسخ. وتلك الأنثى هي ذاتها من تنجب طاووسا آخر. لم تلده طاووسا أبدا، لكنه صنيعها، وتربيتها، وإذكاء روح الأنانية، والغرور، والتمييز. بجعل كل أخطائه حقا، وكل أفعاله شرفا وإن خلا محتواها من سمات الشرفاء. لا تنشِؤه على الالتزام، ولا الخوف من المعصية، ولا النخوة، والحياء منذ نعومته مع الفتيات، فلا يغض بصره، أو يستقيم فعله. وكيف له ذلك وهو وليد أم لم تقم بتربيه قلبه على الإيمان، أو عقله على الالتزام، أو ضميره على الاستقامة ؟! على النقيض من ذلك هي من تصف عبثه

الصبياني بالشقاوة، والمرح. واستهتاره تبرره بصغر عمره؛ ليظل عمره كله صغيرا لا يكبر. يزاول صبيانته تحت مسمى «نزوة».

تطالب والمجتمعَ بأسره شريكته التعسة بقبولها مجرد وعكة. عليها هي - وليس هو- الشفاء من آثارها. لم تدهشني الأعداد الكبيرة التي وصلتني من تعليقات «عابسة» دفاعا، أو هجوما على رسالة «العابسة» قدر ما أدهشتني رسائل السخرية المرفوضة من عبوسها. وكأن جميع الأطراف المختلفة لم تجتمع نظراتها المختلفة على شيء سوى تلك النظرة الباردة الساخرة بلا معنى، فباتت نظرة بلا رؤية! تحتاج إلى نظرة ثانية. قلتها مرارا. وأكررها تكرارا. لا سبيل إلى حياة عادلة بغير صحة نفسية، وبناء وجداني سليم؛ ليصلح بعده بناء أي بناء؛ لذا قبل أن تشيدوا الأبنية الفاخرة، وتجمعوا أموالكم الطائلة التي تضيع سنواتكم عبثا وأنتم لاهثون خلفها، ولا تجدون وقتا تلتقطون فيه أنفاسكم المتفطعة؛ لتستريحوا قليلا، وتنظروا خلفكم قبل ضياع الأوان، وتدركوا مغبة ما فعلتم وأنتم موقنون من إحسان صنعكم بدعوى تأمين الحياة الكريمة. أقول: قبل ذلك استقيموا في قلوبكم وأفكاركم وأفعالكم تستقم بداخلكم كل نظرة، وكل حياة. لا تبخسوا النفيس قدره! ولا تضعوا أي قدر فوق

قدره! تزوجوا؛ لتنشئوا حياة! فإن كان أحدكم لا يدرك قيمة حياته فلن يكون بمقدوره أبدا أن يمنح شريكه أية حياة. فإن حدث أن استفاقت أرواحكم، ولامست كلماتي فؤادكم، فلتقرأها مشاعركم الغائبة خلف هزائمكم الغاضبة! أعيدوا الحياه لنفوسكم وقلوبكم وذويكم بعد مرور العاصفة ـ بنظره ثانية ...

طريق الغروب

نظـر إليهـا في ذهـول مكره عـلى التصديـق. لا يدري بـأي الكلمات ينطـق وقد عجز قلبه أن يحتوي أنفاسـه، فبـدت متهدجة متلاحقة. أغلق عقلـه عن التفكير؛ حتى لا يقر بجديتها في قرارها. فأقصى ما كان يخشـاه في محاولاته الفرار من تلك المواجهة هو اصطدامه بعقلها، وآرائه شـديدة الصلابـة. كان يعلـم يقينـا عجـزه عـن محاورتهـا؛ فعقلهـا كان حائطهـا المنيـع الذي لم يسـتطع أبـدا مواجهته. وكذلك إرادتها التي لم يسـتطع أبدا ترويضهـا، أو العبـث في مقتنياتها بالرغم من كل محاولاتـه، وبالرغم من التزامهـا طاعته. بدت لـه الأضواء خافتة. وغامت أمامـه كل رؤيا. مثلما بدت لها تماما كل الحقائق سـاطعة. أراد أن يسـألها عدة أسئلة لم يقو صوته عـلى حملهـا. بدت لـه أحمال الكلـمات ثقيلة. فقـدت حروفـه نطقها؛ فقد أصبح القرار اليوم بين يديها. لا يملك منه سـوى الإنصات لها. ثم سؤال بائـس منعـه خجله من التصريح به، فظل ضاغطا على أنفاسـه وقد تركته

بهـدوء بعد فـراغ الحديث، وفراغ المكان بدونها. شـعر بمزيـج مروِّع من التصديق المفجع لقولها. زادت رغبته الجنونية في التكذيب. سقطت رأسه بين كفيه. لا يقوى على رفعها؛ لاعتلاء جسده المضطرب خوفا، وهذيانا؛ ليظـل السـؤال يصـارع أفـكاره: منـذ متى أنـت تعرفين؟ كيـف أحتمل فراقـك؟! كيف تغادرين؟! أما هي فقد اسـتدارت؛ لتنـصرف بعد إلقاء كلماتها الأخيرة هادمة كل آماله. كانت تسـمع صوته المحتبس في صدره. كانـت تـرى تلك الدموع الهالعة في قلبه. كانت تشـفق عليـه. وكثيرا فيما يحـدث له الآن، وفيما سـوف ينتظره؛ فقد سـبق أن عانت كثيرا من بعض ممـا يجول بأروقة حطامه الآن وقـت أن طعنتها خيانته. وظلت تعاني ذلك الهلـع الذاهل تبحث عن اليقـين حتى وجدته. بالرغم مـن كل مراوغاته وتضليلاته وحدت الحقيقة بأقسـى طريقة حين طالعت صفحات علاقته بأفعـى تمكنـت مـن خداعها هي ذاتها، واسـتدرت شـفقتها حـين ابتزت مشـاعرها الرقيقة؛ لتحكـم خداعها بدعوى ضعفهـا، وندمها، ثم باءت محاولتهـا الماكرة بالفشـل، بل كانت بداية اكتشـافها الحقيقة كاملة. كيف كان يحيا منتشيا بعلاقاته مع تلك وسواها وهي راقدة كما الطفلة في فراش خداعه الطويل، لكنها أفاقت مصدومة؛ لتدرك كل شيء. وكأنه عقد أسود انفرطـت حباته المشـوهة بأكاذيب، وحكايات أدمن السـعي بها .كم هي

مريرة تلك اللحظة! كالسُّم يسري بالدماء! كم هي موغرة آلام الخيانة! لا تقتل الجسد، لكنها تميت الروح. لا تصيب عظامك، لكنها تصيب أعصابك. لا تعمي بصرك، لكنها تخبرك كم عميت. تعلم جيدا مرارة تلك اللحظة الذاهلة بين عذاب التصديق، وضلال الهروب المستحيل منه. هو لا يستطيع تصديق ضياعها منه، ويذهل عنه تماما كعجزها عن رؤية خياناته لها أبدا على الرغم من إحاطتها بها. أجابته بصوت لم يصل إليه في قرار قلبها: أعرف منذ اللحظة الأولى، بل ربما من قبل حدوثها. منذ أن دخلت حياتي مغادرا بأول لحظاتها كأنك كنت فقط تود امتلاكي بيديك. غادرت سريعا تاركني وحيدة أبحث عنك في حياتي كل ظل لها. ألم تتساءل كم ظللت أبحث عنك ؟ كم وضعت من أحلام بالغد ؟ وأنت اقتنصتها تاره بيديك. وطورا لضعفك فعلتها. وقد سُرقت مني أيامي. ورضيت بوجودك فقط دونها. كم تساءلت بحيرتي عن شعوري بتلك الانقباضة دوما، وفقدي أحلامي هدوءها! علمت من أحلامي التعسة، ورسائل القدر الكثيرة لي. لكن لم أفهم حينها. منذ غموضك المبهم وقلبك المغرم بالحياة، وحرماني ظلها. منذ تجرعي مرارات لحظاتك الجنونية مع تلك الأخرى الحائرة. منذ تقاعست عن إسعادي بوجودي بحياتك، وإشعاري أني ملكتها. منذ أن امتثلت لأنانيتك لفرط حبي.

وقبلت أنت للمنتهى. أعرف من انقباضة قلبي بلحظات لم أكن أفهم سببا لها. أعرف من وخزات صدري التي كانت تأتيني دون أن أفهم لم أشعر بالآفاق تحمل لي آلاما خشيت عدم احتمالها . أعرف من نظرات عينيك الآثمة، ولهجات صوتك الآمرة، وصيحات تمردك الدائمة على كل ما قدمته لك روحي من عناء. أعرف من تباهيك بخواء عقلك من حساباتي، وبانفرادك وحدك بكل قرار ترغمني على الامتثال له بحياتي. أعرف من لحظة عشتها معك، ومن كل سنوات العمر التي تجرعت فقدانها. أعرف من سنوات وحدتي الطويلة، ومرارات غربتي الثقيلة. كان يُفترض أن تكون تلك السنوات أجمل ما عشتها. أما زلت تتساءل كيف عرفت، ومنذ متى؟ أوصدت كل أبواب الدنيا في وجهي. وجعلتني مملوكة في قلبي. تخفيني عن كل نزواتك. أتقنت مراوغة دنياك كثيرا، فظننت أنك تخدعني، لكنك بالحقيقة لم تخدع سوى أنفاسك. تلك الثقيلة على صدرك الآن. حين قررت أخيرا فراقك. أنت لن تفهم أبدا كيف خذلتني. وأنا لن أفهم أبدا كيف خنتني. كان صمتها أمامه بركانيا تقبع ثورته النارية بأحشاء قلبها المتفاني صريع الصدمة. حاول الحديث مجددا قبل مغادرتها بنبرة مختنقة شديدة الوهن لم تقو على الوصول إليها، فبدا ضائعا وهو يعبث بشعره باضطراب بالغ أكثر؛ ليقف مهتزا شاردا بنظرة هالعة إلى الفضاء. وكأنها استجداء. لا يعرف كيف يُقبل منه.

ـ لم أقصد! لم أقصد! لا يمكنني إيلامك! منذ متى أنت تعرفين؟!

مضت ساعتان لم يقو فيهما على محاولة الحديث إليها؛ فقد أعجزه خوفه عن مجرد المحاولة. تركته وهو لا يزال في غياهب الصدمة لا يدري ما يفعل. كان موقنا من عزمها بهلع يملأ صدره، فعجز عن مجرد المحاولة مكتفيا بمحاولة الحلم بألا يفقدها منتظرا من الوقت أن يمنحه شجاعة تمكنه من محاولة استعادتها . وفي الصباح ارتدى ثيابه في قلق. لا يدري كيف سيذهب إلى عمله وعقله ضائع خلفها، لكنه كان مضطرا؛ فقد كان خجله منها لا يزال مسيطرا على فكره. لا يدري بأي وجه يلقاها وقد أعجزه حنقه على نفسه عن مواجهتها. وقبل أن يغادر تمنى أن يطبع ألف قبله ندم على جبينها، وآلافا أخرى فوق رأسها. لكنْ عجز عن التقدم قربها خطوة، فاكتفى بنظرة شوق هالع إليها، وندم مدقع. ملأت غرفتها حرارة. غاب عنها دفؤها. بدت له كل الأشياء المحيطة تنتحب معه؛ لافتقادها. وجد نفسه ينظر من جديد إلى سابق ما كان يظن نفسه يمتلكه بنظرة ثانية. لا تحمل سوى كثير من ضعفه، وخوفه، وشدة شوقه، وافتقادها. مضى حزينا إلى عمله؛ فرارا من مواجهتها .وفي غمرة انشغاله أخيرا بزوجته الحبيبة التي لم يحسن أبدا حبها فاجأه رنين هاتفه؛ ليجد

من أسـماها يومـا «حبيبة ». وتمادى بوهمه في الانشـغال بلعناتها سـموما. تلذذ يوما بها. شـعر بالحنق. واشـمئزت روحه من رنينها، فألقى بهاتفه. ولم يجـب. وحين عـاودت الاتصـال أغلقه، فلم يكـن ليطيق سـماع صوتها، بل شـعر باشـمئزاز منفر منها. وداهمه شـوق جارف إلى الحبيبة زوجته، فعاد بمقعده إلى الخلف واضعا يده خلف راسه شاردا قلقا على زوجته الرقيقة النقية، فمضت الدقائق ثقيلة بعدها؛ ليقطعها رنين محموله برقم لا يعرفه، فأجـاب متململا. تلك اللعينة تلاحقه من حديد، فينهرها في غضب آمرا إياهـا ألا تتصل به مجددا، ثم نهـض واثبا مختطفا جاكيته إلى زوجته حبيبته الوحيدة وهو لا يدري كيف يلقاها، ثم خطر له خاطرا مفزعا أن يعود إلى المنزل، فلا يجدها، وتتركه، فتصبح الحياة جحيما بدونها. كانت السـاعات القليلـة الماضيـة هي باكـورة عذابه وهو يشـعر بالخـواء وحيـدا بغيرها. وأصبحت الحياة فراغا دونها. سـخر متألما من عذابه وهو يذكر كيف برر لهـا خيانته يوما بالفـراغ، وكيف دمعت عيناها ألما وهي تردد كلماته هالعة «فراغ»، وتساؤلها الباكي: هل كنت فراغا في حياتك؟

ـ ألم تسـتطع أن تكـون أكثر احتراما لي، ولذاتـك، وترتقي في اختيار أسبابك المهينة نزواتك؟

مـرت سـحابة النـدم؛ لتقطـر أدمعا بقلبـه. تمنى لـو اسـتطاع أن يجعلها تصدق ذلك العذاب الذي يكابده الآن في بعدها، لكنها لن تصدق هذه المرة؛ فقد تجاوز بخيانته لها سـقف احتمالها. سـامحته دوما مرغمة بحنوها عليه على كل أنانيته معها. هل تستطيع مسامحته الآن بعد أن اكتشفت خياناته لها؟! كان يتسـاءل بخوف هالع في أعماقه كيف يسـتردها – كما كانت – إلى جواره من جديد. سـتظل دائما حب قلبه الوحيد. ظل يتسـاءل في ندم بألم يعيد إليه كثيرا من مشاهد ذكري لها. تعده بندم أكبر على ضياعها. وتجدد ألمه. بالمزيد. أما هي فكانت حقاً – كما هي تشعر بأناته، وتجيب تساؤلاته – ترسل إجاباتها الباكية كمداً بحمل ثقل أوزاره عنها، فذهب طيفها الحاني إليه مشـفقا عليه متسللا. يلـوم تسـاؤلاته بغفرانها. لم يـدر ما يفعل. خـارت قواه وهو يفكـر. لِمَ تخطّى كل حواجـز العقل، والقلب، وصار في طريق الإثم إلى النهاية ؟! كيف أهمل ذلك الشعور بحقارة ما يفعل، وإحساسه بالملل كثيرا من تلك اللعينة المتلونة المنحرفـة المسـتعدة دائمـا إلى مجاراته، وإرضـاء غروره الذكـوري بكل صورة كالحرباء؟! فكان يعود. وكأنه كان يجبر نفسه على الشعور بما لا يشعر. لم يكن أبدا يريدها تلك اللعينة، بل كان مزهوا بإحـــدى نزوات شبابه. بل كثـيرا ما كـــان يود الهروب منها، ثم يعود إلى العب معها معتقدا بمسالمة طريقه

مـن الحسـاب. زوجته لا يمكنها أن تعلم، لكنهـا علمت. وضعوا خيانته أمـام عينيهـا في صدمتهـا الأولى؛ لتعمي كل دنياهـا. غضبت. صرخت. جنـت. مرضت. غفرت. بل ربما أنها غفرت مـن اللحظة الأولى. لم تفكر أبـدا في فراقـه. وإنما كانت تترنح بعـذاب الصدمة لأسـابيع قليلة. ظلت تجاهـد ذهولها، وبحثهـا عن الحقيقة. حتـى باغتها اليقـين يصفع نقاءها، وتمام ثقتها المطلقة به. بعد مرور العاصفة. بعد أربعة عشر عاما منحته فيها حياتها شريانا متدفقا بالعطاء؛ فقد كانت حياتهما معا متخمة بالعواصف، لكنهـا كانـت – أيضـا – مثقلة بالعواطـف، فكانت دائما تمـر بنظرة ثانية حالمة تماما كالنظرة الأولى. هل يمكنه استعاده تلك النظرة منها الآن بنظرة مغفرة ؟ هل يمكن لعاصفة خيانته لها من مرور ولو بعد حين ؟ احترقت دموع الندم بقلبه. وتجمدت ثقيلة كآحجار جاثمة على صدره، فسقط من جديد على المقعد. لا يقو على الحركه. ينهض بعد دقائق يهادن شوقه إليها بالعبث في أشـيائها. تلك الأشـياء التي اقتطفها معه يشتم فيها نقاء ريحها بعد أن قضى ساعات ليلته الحزينة أمس يتقاسم معها حبها ضائعا بغيرها في غرفتهما. حين وجد نفسـه يتأملها أول مـرة كأنه لم يرها أبدا قبل ذلك. تنبـه إلى ملابسـها التي لم ترتدها يومـا. تجول بعينيه بـين أغراضها المنظمة بعناية. عثر بينها على ثمرة جوز الهند القديمة. قرأ كلماته المحفورة عليها.

وبـدت تجاعيد الزمن بآثارها عليها تخبره عن تلك السـنوات البعيدة التي مـرت. بينـما ظلت هي مع ثمرتهـا تنتظر. احتفظت هـي دائما بكل ذكرى منـه. وانتظرت كثيرا طويلا عودة فارسـها الذي ظنت، لكن لم يعد إليها، ولا بقـي معها، فبقيت معها هديته الأولى لها .وجد صورهم القليلة معا. وجـد حزنهـا الذي طالما كان باديـا. وجد غروره دائـما. لا يبالي؛ فقد كان موقنا من مهارته خائنا دائما. لم يجهد قلبه يوما أن يحذر من سقوطه الحالي. وجد – أيضا – أوراقه الدراسية القديمة بخط يديها. تذكر أول مرة عندما كانـت تقوم بإعادة صياغتها بإيجاز؛ حتى لا يمل قراءتها. تذكر تدليلها له، ودعمه أثناء دراسـته العليا وهي لازالت عروسـا. كانت له كل شيء دون أن يعطيها أي شيء سوى غروره بامتلاكها، وأنانيته معها. تذكر بندم كيف كانت تودعه كل صباح بعد أن تطعمه كطفلها، ثم تقف؛ لتشير إليه مبتسمة حـين يغـادر إلى كليتـه.. وتذكـر – أيضا – بنـدم أكثر مـا كان يفعل وقتها .وجـد بـين الأوراق مفكرة زرقاء. رآها أكثر من مرة بين يديها في سـنوات زواجهـم الأولى. وأخـرى بيضاء كانت تكتب مذكراتها بهـا أيضا. وكثيرا مـن أوراق أخرى لم يرهـا معها أبدا، ثم وجد جهازهـا الخاص التي كانت تدون مذكراتها عليه فقط في أيامها الأخيره. مد يده إليه بلهفة خائفة؛ لعله يجـد بين طياته بريق أمل يعيدها إليـه وعيناه تجوب أغلفة مفكراتها العديدة

بآسى وهو يذكر كل أشيائها القديمة بين يديها. تلك التي سكنت بين ربوعها بأفضل مما سكنت بين يديه. تذكر مع ذكرياتها كل ذكرياتهما سويا منذ أن ولهت عيناه بجمالها، وقرر اختطافها بقلبه، وعقله، وروحه. وعلى الرغمن منذلك فإنه لم يكن مخلصا لها. شيئا دائما كان ينقصه. الآن فقط أدركه. أدرك انغماسه الأناني بذاته، وغروره الذكوري بامتلاكها. أدرك جموح تيهه بنزواته، واستوائها وحدها بنقائها. تذكر كيف مرت معها سنواته. شيدت له أحلامه قصورا زاهية. احتملت وحدها عناءها. التقط جهازها؛ ليقرأ في مذكرات الحاسب.

<ماذا أفعل والحيرة لازالت تعصف بأوصالي؟!

وغضبي يزداد حينا فحينا برغم بدوي لا أبالي

كم زرعت طرق العذاب ذهابا وإيابا!

أبحث عن أجوبة تهدم سقف أحزاني

وحين وجدتها أخيرا سقطت بهوة بركاني

أصبحت أعرف كل شيء أخيرا ولازلت أجهل

كيف جنيت على نفسي إلى هذا الحد ؟

وعلى الرغم من ذلك فإنني لا زلت أسأل

ويحي! ماذا فعلت بنفسي؟! وماذا عساي قد أفعل؟ !

ذهب العمر وضاع الأمل ونقشت أحزان الدهر أوجاعي وشما

كلما باعدت عينيّ عن مرآه أهداني رؤياه كفنا

يبدد كل أيامي

وفي كل يوم يبتدئ الصباح برسم تفاصيلة العابسة

لتلتقطها كل مساءاتي بترهات ضياع لاهثة

بشقاء الفرار

وعذاب القرار

بدوام اعتذار

لنفسي

فلازالت يداي مقيدة

ولازالت روحي زاهدة

وكل أفكاري مُسهدة

لا تدري طريقا

أو تعرف صديقا

يستعيدها من تلك الهوة

وقد أمست شقوقها مصلوبة بوريدي

تدفعني خلفها محمولة بنحيبي

علقت عيناي بسواد قاتم يعلو دروبها

مستسلمة لعذاب اعتاده حسي بالمزيد

وخوف دائم وطول توجس

يعبث بذاتي ثقيل التحدث

إلا من عبارات لوم أليمة

وظلال هواجسي القديمة

تُلقي بأخر تحديثاتها

مر العمر كما مر عاصفة دام اجتياحها

وبقيت كلمة النهاية **توقيع للخاتمة**

شـعر بالألم يعتصر فؤاده والخوف يدمي قلبه. ولم يعد يقو على قراءة المزيد، فترك حاسـوبها بخـوف متصاعد؛ أملا في التقاط أنفاسـه الجزعة. وتلمـس بعض السـلوى في مذكراتها القديمة؛ ليقـرأ في صفحاتها بتاريخ يفصل بينهما بعام، وبضعة أشهر.

<هذا الذي ما إن غضبت منه حتى تسارعت أوردتي في عقص جـدالي، وابتـلاع آلامي؛ حنواً عليـه. هذا الـذي إن رافقني حميم ألمي بركانا يلتهم سـكناتي الطيعة صبرٌ سـابقته تمتمات حبـه الراقدة في ثنايا حسي تطفئ حمـم بركاني بصدري كأعقاب السـجائر عائدة إليه. هذا الذي أقسمت على قلبي كل مرة يوغرني ألما أن أرحل عنه فراقا أبديا، فتسـترق دقات قلبي السـمع هالعة، وتدق كطبول حـرب واثبة إليه. هذا الذي لم يكن يوما يشبهني. ولم أكن أبدا أشبهه. وبالرغم من ذلك فلا أرى نفسي إلا بين يديه. هذا الذي سـطر اسمه الأول بين حروفي. المحتل قلبي. الدائم في أنفاسي. حنينا دائما فرارا منه اليه.>

أجهش قلبه بالبكاء وهو يقرأ سـطورها متحسرا بقسـوة الندم أكثر. بكاء الندم المضطرب هو وحده أقسى عقاب مؤلم لكل مذنب ينعي فاجعة

خاطئة. كان يتقلب بين سطورها – القديمة، والأخيرة – على جمر الندم، ولهيب الألم. وكلما طالع كلماتها القديمة شعر بالندم يعتصر حزنه؛ ليعاود الخوف إرهابه بفقدانها، فيطالع كلماتها الأخيرة؛ ليعتصر الألمَ حزنُه أكثر بخوف أكبر من فقدانها. توقفت دقات قلبه حين قرأ كلماتها الأخيرة. ولم يستطع المواصلة بعدها. وجُنت خطواته تسارع الرحيل خلف خطواتها إلى حيث لا يعلم. وبعقله تجري مشاهد عنادها المتلاحقة، وصلابتها الساحقة فيما تؤمن، وتعتقد. كان يعلم أنه يسعى خلف مهمة مستحيلة باستعادتها، لكنه كان يعلم أكثر استحالة استطاعته فقدانها .تذكر بخوف أكبر مناقشتهما حين كان كان يشعر بإحدى وخزات ضميره الراقد طوعا بغضبٍ خلف أنانيته. عندما سألها رأيا فيما يفعل بدعوى أنه يخص صديقه، فما كان منها سوى رفض مطلق لكل ما أخبرها. وأسهب؛ فلم يجد عندها دفاعا عن صديقه الذي ادعى أن علاقته مجرد صداقة. أجابته بطلاقة: لا صداقة في الخفاء. ولا علاقة إلا كانت سوية في العلن، أو دنيئة في الخفاء. يومها تجمدت الدماء في عروقه وهو يتساءل: ماذا – إذن – إن علمت؟ فأعاد المحاولة معها مخبرا إياها أن صديقه لا يحب سوى زوجته. ولا يستطيع فراقها، لكنها تأبى أن تكون صديقته. وهو يحتاج فقط إلى مجرد صديقة لا تناطحه بالحديث جدلا، ولا تشعره دائما أنها

ليست معجبة به كما تفعل زوجته. وتلك الأخرى ليست سوى مجرد صديقة تجيد إرضاء رجولته، وتشعره بأفضليته، فساءلته بثقة: هو – إذن – يتذرَع بالصداقة؛ ليبرر لنفسه الخيانة؟! كيف يصادق رجل متزوج امرأة كانت يوما فتاة منحرفة جمعته بها وسواها علاقات مدنسة في الماضي لا يرضى عنها ربها؟! كيف ترضى– إذن – زوجته، وتقبل بها كصداقة؟! أم لا ترضى، ولا تعلم؟! ويستمر الزوج بالغوص في الوزر، والعبث بحياته حتى تمام السقوط في براثن آثامه. أما زوجته فهي لا تأبي صداقته. وإنما هو من يخادع نفسه؛ لأننا لا نطلب سوى الصدق من الصداقة التي اشتقت من ذات حروفه. وكفى بالصدق معيارًا محددا لقيمة الصداقة؛ فهو جامع كل شيء. كما تفعل زوجته التي تصدقه حقا بنصحها وإن أغضبه حديثها. وهذا هو منتهى الصداقة؛ لذا لا وزن لكلمات الإطراء المدمغة بالرياء المدمرة معنى الصداقة. ولا قيمة لهالة الذات المتخمة بنقوش النفاق المضللة لها؛ فنحن لا نزن العبارات بالكلمات، بل بعمقها. ولا نثمن الصداقة بالإعجاب، بل بصدقها. ذلك الرجل مغتر بذاته. ولا يبحث سوى عن ملذاته مبررا لها. ربما؛ لضمير لا زال متاحا في أعماقه. مستنجدا. هو لا يبحث عن صديقة. وإلا لكان وجدها في محارمه، أو زوجته بكل سهولة لو أراد، أو كان صادقا في طلبه. هو يبحث عن سقوطه في بحر

العسل المحرم. عن تفاحة الشجرة المحرمة. يزهد جنته. ويتأفف من بريقها النقي مستسلما إلى مكائد الشيطان حتى يسقط في هوة الجحيم، ثم ختمت حديثها بعبارة ارتعد لها قلبه: الخيانة فعل حقير. ليس له تبرير. يومها ابتلع الخوف في حلقه مريرا مع طنين عباراتها الصادقة في قلبه الذي انقبض مع صيحات الإنذار اللاهثة شجبا لفعله. وما زاد من قلقه وخوفه تلك البساطة الحاسمة التي تحدثت بها زوجته، وتلك الثقة المطلقة التي لم تجعلها تتساءل لحظة عن ذلك الصديق، أو تطالبه بإخبارها اسمه؛ فقد كانت راقية الفكر والفعل دائما. كما كانت شديدة البراءة، والمسالمة، ونقاء السريرة، فلم يدر بخلدها ولو للحظة احتمالية أن يكون حديثه عن صديقه هو دفاعه المستقدم عن نفسه. نعم لقد أخطأ، واقترف إثما شديدا في حق زوجته المخلصة. وبالرغم من ذلك فإنه لا يستطيع التخلي عن حلمه بغفرانها، لكن ما يخيفه حقا هو ألا تنسى؛ فهي من قالت له يوما: يمكننا الغفران دائما، لكننا لا نستطيع أبدا النسيان؛ فالغفران هو شعور قلبي راقي إنساني النزعة. يرتبط بمعطيه المانح، لا الممنوح. أما لنسيان فهو إرادة عقلية يقبل العقل أحيانا بمشاركة القلب فيها إن استطاع كلاهما عبور العاصفه معا. إن قبل العقل بمسامحة الأمس الذي مضى أسفا، وقبل العقل ـ أيضا ـ بتصديق ذلك الأسف الممرور بالندم. أما القلب المحب فهو

يقبـل، أو لا يقبل النسـيان. فطاقة القلب المكلوم بعاصفـة الخيانة لا تفهم، ولا تعـي إرادة العقل بالنسـيان مثلـه. وإنما تظل رهينـة الصدمة بالعاصفة والعاطفـة زمنا تحدده الأيام.. وتؤكده، أو تنفيه جهود المخطئ. وفي أفضل الأحوال قد يمكن التناسي، لكن بلا نسيان. لا يمكن لامرأة وفيّة أن تفهم، أو تعي معنى الخيانة سـوى أنها قتامة شـديدة الظلمة. لا لون لها. ولا حتى الأسـود؛ فالأسـود مجـرد ظل أجـوف لها لا يحمل سـوى بعـض قليل من قتامتها، وقبحها. لا يمكن لامرأة سـويّة أن تفهم، أو تعي معنى الانحلال عن القيم، أو التجرؤ على المحرمات. لا توجد مبررات للخيانة مهما تحلت دفوعها، وملأها عبارات؛ فهي بالنسـبة لي طلاسم، ولوغاريتمات. لم يكن وحـده مـن يكابـد آلام الذكري؛ فبينـما كان يئـن بندمه كانـت هي تنزف بجراحهـا تتذكـر؛ لتنزف أكثر. تذكرت بألم ذلك اليوم يوم أن اسـتيقظت من غفوتها المنهكة التي لم تشـعر بها وقد أمضت ليلتها شـاردة العقل واجمة القلب، لكنها لم تتوقف ثانية عن التفكير بقلق مضطرب. لم تعرف له سببا. وقـد تمكنـت منهـا وخزتها المتكـررة التـي كلما تجاهلتهـا خائفـة عاجلتها بأخـرى. نظـرت إليـه إلى جوارهـا وقد بـدا لها مسـتغرقا بسـبات عميق، فابتسمت بقلق خفي وهي تطالع ذاك الأمان، والهدوء المرتسم على ملامحه أثنـاء نومه كطفـل بريء الذي يفقده فور اسـتيقاظ غضبه الطفولي المعتاد

حين تفور أعصابه سريعة الاشتعال التي كانت تراها حينها. أيضا. غضبه طفل صغير يقبع بداخله لم يكبر أبدا. ولا تراه يستطيع. ابتسمت بألم متسامح وهي تذكر له مرات ومرات سنوات مرت بالكثير، لكنه فجأة استيقظ. ونظر إليها، فابتسمت له بحنو عاتب، فبدا لها خجلا منها. أشاح بعينيه بعيدا عن نظراتها الحانية؛ فرارا منها. وبدا لها أنه مازال منزعجا، بل أكثر انزعاجا من ليلتهم الماضية. كان كمن يحمل عبئا ثقيلا جاثما على صدره. كان يفر بشروده كأنه يعيش ذنبا لا يقو على مواجهته. وبدا لها فراراه أكثر وضوحا حين نهض من الفراش كأنه يخشى شيئا لا تفهمه . مضت بعد ذلك دقائق حتى أنهي صلاته؛ ليرقد بقلق لم يستطع إخفاءه، أو ربما لم يدرك إخفاءه قبل أن تلحظه. وبعد برهة صمت طويلة وجدت نفسها يومها تذكر تلك الليلة الغريبة التي سبقت هذا الصباح بأشهر قليله. تلك التي شعرت فيها بنفس تلك الوخزة، فلم تفهم لها سببا. حين كان عائدا من سفره المعتاد. واختفى بعد دقائق. لم تفهم وقتها كيف وجدت نفسها فجأة تعتلي قدميها سابحة بهما في بحار اضطرابها الذي لم تفهم له سببا. وكأن قدميها امتلكت قرار المسير، واتخاذ الخطوات؛ لتذهب بها أخيرا إلى ذلك الطريق باتجاه الغروب . لم تدرك ـ أيضا ـ وقتها أن تلك الخطوات التي لم تفكر أبدا بها كانت بداية الطريق إلى طريق اللاعودة

طريـق الغروب بعلاقتهما. لم تكن تـدري أين تقودها خطاها حين وجدت نفسها لا تعرف أين اختفى زوجها العائد منذ لحظات. ولا تدري بم تجيب أحـد عمال المنـزل الذي وقف بالطابق الأسـفل مناديا زوجهـا؛ لتضطر أن تجيبه من أعلى وهو يسألها عنه. ذُهلت كيف يتركها معهم وحدها وهو من لم يكـن ليسـمح لأيهم أن يلتقي بهـا أبدا. وجدت نفسـها لا تجيب، بل بلا هدى سـوى بأنفاس لاهثة مضطربة، ودقـات عالقة بنظرة خائفة لم تفارق عينيهـا. لا تدري ماذا سـترى يخيفها بتلـك الدرجة الفزعـة. وبالرغم من ذلك فقد كانت تنتظرها وصوت الهلع يدق بقلبها. يتمنى ألا تراه. ودهشة ورعـة تتعجـب. لم تتوقع ألما مما سـوف تـراه. وكأن أخـرى كانت ترتديها وهـي منومة مغناطيسـا. وتحمـل خطواتها؛ لتريها عنوة مـالم تتخيل رؤياه. كانـت الأخرى متحكمة بها تماما بقوة عازمـة بيقين حزين. لم تدر من أين أتت بها، ولا من أين أتت به، لكنها تمنت فزعة ألا تراه. بينما كانت تصعد إلى أعـلى بنايـة مسـكنهم للمـرة الأولى. في ظـلام الليـل، وظلمـة مخاوفها المبهمة. ببرودة قشـعريرة سرت بأوصالهـا المرتعدة كأنها أتت بصقيع يناير في حـرارة يوليـو. كانت تخطو بخطـوات مرتعدة تتصبـب عرقا، وخوفا. تخبرها الأخرى أن تسير باتجاه الغروب وهي هالعة، لكنها طائعة الأخرى بذهول كسـير الحزن. تتمنى ألا تغرب بها الخطـوات، فدعت لقلبها الهلع

ألا تـراه، لكنها رأته. وغربـت عيناها. ووجم قلبها. وغارت تلك الوخزة الغامضـة بصدرها تودي بـها تبقى لها من أمل مضطـرب. رأته قريبا بعيدا متخفيا بين البنايتين جالسـا بسـيارته قابعا بالظلمة. لم تدر لم شـعرته هانئا معها. لم رأته عالقا فيها. لم رأته غارقا بها بتلك الظلمة موغرة العتمة. كان ضوء محموله الضعيف هو ركيزة ظلامه التي شعرت بها بكل شيء ليلتها. وكأنهـا تراه. كانـت الأخرى تري، وتريها رغما عنهـا. كانت الأخرى هي حدسـها، وحاسـتها شـديدة النقاء التي مـا أخبرتها عنه خـيرا معها يوما، لكنها ما كانت تسـتمع إليها أبدا، فظلت ترقبه لحظات، أو دقائق بدت لها ساعات، فظلت واقفة مشدوهة موجمة الخطى. تتابعه ذرات قلبها المتقاطرة فزعا، وسـكنات روحها الذاهلة أملا. لم تعد تنتظر لقياه. وجدت نفسـها تـردد فجأة: يارب سـلم! ومضـت اللحظـات الغامضة ألما. وعـاد ليلتها سريعا، أو هكذا اعتقد. لكن شيء ما كان قد سقط منها بخطوات في اتجاه الغـروب. كانـت تنتظره بغرفتهـا هادئة النظـرة، أو هكذا اعتقـد، لكنها كانت واجمة النظرة بالحقيقة مدقعة بالوهن المضطرب بألم غامض، فسـآلته بصـوت خفيض مضطـرب: أين كنت؟ وبدا لها متفاجئـا وهو من لم يعتد مثـل ذلك السـؤال منها أبدا، لكنـه تصنع مَرَحا، وأحـدث مزاحا، وأخبر أسـبابا. لم تسـمع أيا منها؛ فقد كانت الأخرى متحكمة بها تماما هذه المرة.

كانـت حاسـتها هي من تجلس قبالته تسـأله بيقـين، فنظرت إليـه مليا من جديد، ثم أعادت سـؤاله ذات السؤال بذات الصوت الخفيض مضطرب النبرة عاتب اللكنة بألم غير مصدق: أين كنت؟ انزعجت خطواته الواثقة. وتبين لها كم هو مضطرب، بل أكثر اضطرابا منها. بدا لها منزعجا خائفا. لا يـدري بم يجيـب بعد أن أفرغ إجابته بصوت لم يكـن هو ذاته يصدقه في المـرة الأولى. لم يـدر بم يجيبهـا في المرة الثانيـة عن ذات السـؤال، فعمد إلى المـزاح أكثر، ومحاولة إقصاء اهتماماتها بالإجابـة، فبادرته بنظرة أكثر عتبا، وألما. وأعادت السـؤال بشـكل أكثـر إصرار بصوت خفيـض، وألم ظاهر تؤلمـه الأحرف المتسـاقطة بثقل منهـا وعيناها لا تفارق التطلـع إليه ذاهلة: لقـد رأيتك مـن أعلى! أين كنت ؟ اتضـح له أن إجابتـه الخاطئة أوقعته في مـأزق، فخارت قواه عجزا عن الفـرار، فاعتذر لها بأنه فعلا كان في طريقه إلى أحدهم، لكنه تلقّى اتصالا هاما من صديقه، فلم يكمل الطريق. وأخذ يـبرر أنه اسـتغرق بالحديث، فلم يسـتطع إكـمال القيادة، ثم شـعر بأنه قد يتآخر، فعاد إليها. ولم يكمل الطريق، و...، و...

أخذ يبرر، ويسـهب في عبارات تسـتبقها عبارات نافية ما قبلها، وما بعدهـا. بينما تنظـر إليه وهي واجمة بـذات النظرة الذاهلـة المتألمة، فانزعج

أكثـر. جثا على ركبتيه قبالتها وهو يقبّل يديها بحنـو بالغ، ورقة أخافتها. وأخـذ يحتضنها برقة بالغـة حانيا معتذرا خائفا رابتا على ذراعيها بخوف، وانزعاج صادق. كان أصدق كثيرا من عباراته الكاذبة. شـعرت بالشفقة عليـه؛ لفرط خوفـه، واهتمامه الصادق. ووجـدت قلبها يغضب من تلك الأخرى الوليدة حاستها التي نهرتها.

ذاك هو قلبها أمومي العاطفة طفولي الروح. قد أعادته حالة زوجها المزريـة إلى السـيطرة، فـركل مخاوفها، وألمهـا. وربت حانيا عاتبـا عليها؛ لتستسلم لهما معا. شاردة الخطة بعقلها مع الأخرى حاستها التي أصمتتها سـلطات قلبها الناهيـة، فتركتها متوعدة متألمـة دون أن تبقيها بيد خاوية. وقـد تركت بها ثقبا غائرا متسـائلا. لم يجد إجابه تـرأب صدعا غامضا قد بـدا لها في تلك الليلة. لم تسـتطع سـطوة قلبها أن تعيد مـلءه بكل عباراته الباليـة .أعـادت لهـا ذكرى تلـك الليلـة إحساسـها ذاته بـالألم الغامض. وتجددت وخزتها بالنداء، والاسـتجداء لها بالتيقـظ. وتذكرت معها عدة مشـاهد أخـرى لم تتوقـف عندها وقتها؛ لفـرط أمانها المطلـق فيه. لم تكن تثـق به كما تثق أية امرأة بزوجها، بـل كانت تودع أمانها فيه. وبدا لها اتجاه طريق الغروب الذي بدا منذ تلك الليلة أكثر وضوحا طالبا منها المسـير،

فوجـدت صوتا يخرج من قلبها مرافقا حديث عقلهـا الذي باغتها ببداية الحديـث إليه دون أن تدركه حرفيا. لم تكـن تنتوي الحديث. ولم تفكر فيما سـوف تنطق بـه كلماتها، لكنها فقـط وجدت صوتا يخـرج منها لم تتحكم فيـه. ولم تعرف مسـبقا ما سـيخرج به من غيبات قلبهـا المضطرب، لكنها الأخـرى داخلها التي عزمـت أن تجد رأبا هذه المرة لذلـك الصدع الغائر بدقـات أمانهـا . توجهـت إليه بقلـب أم حنون يومها، وروح طفلة تسـعى خلف أمانها، وامرأة تثق بظلها مرافقا وحيدا لزوجها بغيابها، فتحدثت إليه تتساءل عما يجعله مضطربا أمامها. عما يخفيه عنها، ولا يستطيع التخفف من عبء ثقله. أخبرته أن يثق أنها إلى جواره. وستحمل معه كل أحماله. أخبرته أنها لا يمكنها رؤيته حزينا؛ فهذا يخيفها. وهو كل أمانها. ولدهشتها يومها وجـدت صوتا يخرج منهـا لم تضع كلماتها به، لكنها مثلـه فاجأتها. وجدت صوتهـا يطلـب منـه أن يصارحهـا، وأن لا يخفي عنهـا ما يجعلـه يوما يفقد نظرتهـا الأولى إليه بنظرة ثانية. لن تسـتطيع مهادنتهـا. أخبرته أنها تعلم كم يمكن لرجل مثله أن يواجه، ويلتقي بكل يوم وهو بعيد عن زوجته، لكنها – أيضا – تعلم أنه ليس أي رجل، وأنها ليسـت مجرد زوجة، بل أنفاسـه الصادقة التي يحيا بها، وأنها صديقته، وحبيبته، وزوجته، وأمه طيلة عمرها. ولم تطلـب منه – ولن تطلب منه – سـوى الحفاظ على عمرها. أخبرته أنها

لا تثـق مرتـين، ولا يمكنها تحمل كذبة واحـدة، لا كذبتين؛ لذا فقد منحته عمرهـا كلـه دفعة واحـدة. ولن يكون لديهـا عمران. أخبرتـه أن يخبرها. وسـوف يجدها خلـف ظهره، وطوع قلبـه، وتميمة عقله دونـما أي التفاتة إلى أي شيء سوى استعادة صفائه. تذكرت كيف شعرت بشدة اضطرابه يومها حتى تحركت شفاهه تتمتم بحروف لم تصغها كلماته بقدر ما أثقلتها حيرته المضطربة، فأطرق برأسه خائفا من ملاقاة عينيها لثوان معدودة، ثم اختطف يدها فجـأة؛ ليختطفها إلى جواره معتذرا عن إزعاجها. وبرر لها مـا يمر به بدعوى العمـل، وارهاقاته. لم تنس نظرتـه المرتعدة يومها وهو يسـألها أن تبقـى دائما على يقين أنها هي فقـط درة تاجه، ومليكة قلبه. تلك هـي حقيقتـه الوحيـدة. وكل شيء بعد ذلك هي مجرد لحظـات، وأوهام. وحين تساءلت عن قصده ابتسم مقبلا يديها قائلا بحنان: إن كل ما عداها هـي ليس سـوى لحظات، وأوهـام. تذكرت بـألم كيف اسـتطاع ترويض قلقها، وإخضاعه إلى سيطرة حنانه المغرم حين استفاق من شعوره بالذنب تجاهها الذي كان يؤرق مضجعه؛ مخافة إثارة انتباهها. يا ليتها انتبهت قبل ذلك! وياليته لم ينتبه أبدا! ربما لم يكن يسيرا عليه خيانتها، لكنه بالرغم من ذلك فإنه خانها، وجعل طريق الغروب منذ تلك الليلة هو طريقها الوحيد الذي يطابق صدقها، وصدق حاسـتها. وبدا لها طريق الغروب ماثلا أمام

عينيهـا طريقا اختارته مغالاتها بالعطاء، وشـدة النقاء أمام فرط ذكوريته، وأنانيتـه .كان لا يـزال يفكر في كلماتها بالطريق وهـو عائد يبحث عنها – شوقا، وخوفا، وأملا – مفكرا باتجاه الغروب حيث رحلت عنه بحاستها. منذ بدأت شكوكها وهو يمني نفسه باستعادتها كاملة إلى جواره كما كانت بنظرتها الأولى. لا يمكنه أبدا تحمل نظرة ثانية. وبالرغم من ذلك فقد كان عـلى يقين بحاجته إلى معجزة. شيء ما يعيد إليها ما أخذه منها، ويعيد إليه وجوده بها. هو يحتاج إلى معجزة تبقيها إلى جواره كما كانت قبل أن ترحل طفلتهـا الآمنة باتجـاه الغروب. معجزة تجعلها تنسـى كامـرأة خيانته لها. ومعجـزة أخـرى تجعل عقلها الرجـولي يعيد النظر إليه مجـددا بنظرة ثانية لا تخالـف نظرتهـا الأولى بعـد مرور العاصفـة. هل حقًا تمـر؟! لقد جاب مـدن الذكريات النفيسـة بينهما؛ بحثا عن إجابـة تصادقه في ندمه، وتورق الأمـل في قلبه. لا يمكن لرجل محب لزوجته النـدم على خياناتها بأكثر مما يندم زاهدا لكل شيء عداها هي جنته، ومليكة قلبه المتوجة. لم يعد يطمح سـوى إلى معجزات تبقيها، وتنسيها، وتعيد إليها نظرتها الأولى إليه بنظرة ثانية بعد مرور العاصفة.

ابتسامة صبا

ابتسمت صبا في قرار قلبها ابتسامة ملؤها البحر الذي لم تحبه أبدا، لكنه حضر فورا؛ ليغمرها عمقه ابتسامة تملأ محيط صدرها، وتفيض أملا، وعزما ضخته كلماته في وريدها. هل يظن حقا أنها لا تعرفه، ولا تدركه منذ أول لحظة ؟! حيي وإن استطاع تغيير صوته فهل يمكنه تغيير روحه ؟! وإن ساعدته التكنولوجيا الحديثة في التخفي عنها هل يمكنها مساعدته في جهلها به، وبسنوات عمريهما معا؟! هل يمكنها أن تجهل شقيق روحها الذي لم يقترب منها سواه؟! نعم لقد عمي بصرها منذ سنوات، لكنها أبدا لن تكن عمياء البصيرة. هي لا تحتاج الأذنين اللتين تميز بهما صوته. ولا تحتاج العينين اللتين لا تخطئان صورته؛ فهي تعرفه بروحه تلك القريبة دائما. كأنهما أبدا ما تفارقا. كانت تبتسم؛ لأنه جعلها تبتسم. وجد طريقا جديدا يشق به أغوار أسوارها؛ ليظهر لها بحياتها لحظات قليلة تسري أمنا، وسلاما بربيعها المغادر. تستحلفه ألا يغادر. وكل أمله بعض الكلمات معها. وكل أملها بعض السلوى القليلة قبل أن تغادر. قاطع شرودها سائقها الخاص يهنؤها بالحلقة المميزة من برنامجها

الإذاعي المفضل – كما يخبرها دائما – لديه، وأسرته، فاتسعت ابتسامتها امتنانا له وهي لا تعلم هل هو سعيد بمتابعتها فعلا، وأسرته، أم أنه يحاول إسعادها، والامتنان لها بطريقته عرفانا بمساعدتها له. لم يكن برنامجها شهيرا، بل وليد أسابيع قليلة. شعرت ببعض المتابعة، والنجاح، لكنها لم تطلق العنان لأحلامها بالصعود؛ فهي لا تبحث عن وجود متسع بأفق المشاهير. هي فقط كانت تبحث عن وسيلة؛ للبقاء بقاء أمن في تلك الدنيا المظلمة موغرة الألم في أعماقها. وقد حدث. وأصبحت تحمل اليوم ابتسامة في وجهها. كانت تلك هي ابتسامة أمل. عاد أخيرا إلى قلبها. بعد لحظات كانت بطريقها لمنزلها. تلك الغرفة الأنيقة بإحدى الأبنية الفندقية الفاخرة حيث كانت تحيا بها منذ سنوات بعد أن فقدت بصرها. وكانت هي البديل الأفضل لمسكنها القديم. ما إن وصلت حتى تصفحت بريدها الصوتي لمتابعيها؛ لتجد رسالته الصوتية بينهم ممازحا لها كالعادة، فابتسمت كثيرا لمداعباته الراجية لها ببعض المرح في الحلقة القادمة. انتهت من سماع جميع الرسائل. وطلبت من مساعدتها إرسال الرسائل المختارة إلى فريق الإعداد للحلقة الأسبوعية القادمة، ثم انفردت برسالتها الخاصة تعيد الاستماع إليها. كانت تقوم بعمل محبب إليها. هو إعادة الاستماع إليها مرة بعد مرة ورسائله السابقة. وتعود بذاكرتها إلى الوراء خلف زوايا السنوات الماضية التي فرت منها، ومنه. لم تعرف كيف وصل إليها وقد تعمدت أن تخفي أمر برنامجها الإذاعي عن جميع المحيطين. تركت

انتشاره للوقت إن حدث. خاصة أننا في زمن آخر لا يحفل بعالم الإذاعة وكلماته مثلما يلهث أبناؤه خلف التكنولوجيا، وبرامج تواصلها المختلفة. بل طلبت من مساعدتها الخاصة ألا تعلن عنه مطلقا على صفحتها الخاصة؛ فقد كانت تود الإبقاء عليه بعيدا عن كل عين إلا متابعيه المخلصين. ومع ذلك وصل إليها، لكنها شعرت به منذ اللحظة الأولى. وبقيت صامتة، لكنها قررت فجأة إبقاءه بعيدا كما كان بالرغم من وجوده في عمق قلبها. لم يجمعهما حديث خاص أبدا. وكانت كل مراسلاته لها بوصفها تلك المرأة المسنة صاحبة الحكمة. وهو أحد المتابعين لبرنامجها من ذلك العمر، وذلك الزمن لحلقات الإذاعة. حاولت أن تختطف أياما قليلة من الزمن تهنأ بها بعبير الذكرى لطفولتها البريئة، وصباها النقي الذي كان هو شريكها. في كليهما شراكة اقتطع منها الزمن عشر سنوات. فراق بين الطفولة، وبدايه الصبا. ذلك؛ ليلتقيا في السادسة عشرة؛ ليقع هو بغرامها سريعا، وتقع هي بخوفها أكثر. كانت تعتقده شقيقا لها. لم تعرف أبدا، لكنها كانت هكذا تراه. كانت تخشى أن تفقده إن صدمته مشاعرها بعجزها وان منحتها الوقت. وتخشى أكثر أن تهزمها مشاعرها، فلا تجيد معرفتها له كما يستحق. كانت كل الأمور تقودها بعيدا عنه. هواجسها المضطربة منذ طفولتها عن الزواج، والارتباط. قصص الكبار التي كانت تؤرق قلبها البريء عندما كانت تنصت إلى حواراتهم وهم بظنونها صغيرة لا تدرك. وكانت تصغي لها بصفتها صغيرة لا تدرك، لكنها

خشـيت، وحزنت. خشـيت على قلبها أن تحطمه خدعة. كما حزنت على كل قلب هزمه الفشل. تجد نفسها بالنهاية مثلهم دون أن تفعل شيئا سوى أنها فقط خشـيت، فلم تقـترب. كانت دون العاشرة تسـتمع إلى قصص فاشـلة حزينـة لبعض اختيارات الحيـاة الخاطئة التي تركـت أثرا بالغا في قلبها الرقيق؛ ليقرر منذ طفولتها ألا يقترب منه أحد، لكنه اقترب كشقيق لهـا كـما كانـت تظنـه بطفولتها. وظلـت صورته كشـقيق ملتصقـة به في أعماقهـا، فلـم تخشـه. ولم تبتعـد. وحـين عـاد مع أسرتـه إليهـا كانت في السادسـة عشرة. وظلت كما كانت طفلة تخشـى، لكنه كان لها كشقيقها، فاقترب. لم تخشـه يوما كالغرباء. ولم تـره يوما مثلهم. إلى أن فاجأها يوما بمشاعره، ورغبته بالارتباط بها. وطلب موافقتها، فارتعدت هواجسها، وارتدت مشاعرها نحوه؛ لتراه لحظتها كالغرباء، فخافته، وخالفته. وبتلك الليلـة فقـط أعلنت الحداد عـلى صداقتهـما البريئة، وطفولتهما المشـتركـة. ورأته غريبا عنها، فبادلته مشـاعره الرقيقة بالعداء المفاجئ، لكنه احتملها دون أن يـدرك مـا تعانيه. مما زاد من غضبها، وخوفها فقده بذات الوقت. إلى أن أتاهـا معتـذرا يوما عن سـابق رغبته في الارتباط بهـا. وطلب منها تناسي ذلك، وإنهاء ذلك الجفاء، والعداء معه، فرّق قلبها كثيرا، وصفّق له عقلهـا إعجابـا يجدد نظرتـه له بالاحـترام، لكنهـا ظلت كما هي حبيسـة هواجسـها التي لم تسـتطع الإفصاح عنها إلى أحد. ربـما؛ لأنها هي ذاتها لم تكن تدرك حجمها. لم تعلم سر تلك الانقباضة التي تأتيها، وتلك الرجفة

المرتعدة حين يبادر أحدهم برغبته الارتباط بها، أو حتى تلك النظرة التي تسعد كل فتاة إعجابا بها. كانت ما إن تلمحها حتى تغضب، وتناصب أصحابها العداء دون سبب تدركه، أوتستطيع التفكير به. فقط كانت تغضب، وتهرب. هل تأذّت طفولتها إلى تلك الدرجة بما كانت تسمع من قصص؟! لا يوجد لديها قصة واحدة، أو حتى مشهد يخصها، بل عدة مشاهد قليلة متفرقة. تأثرت بسماع بعضها في طفولتها. وأخرى رأت أصحابها. إحداها توفيت ضحية خدعة صديقتها السيئة. والأخرى كانت تحيا بائسة تتمنى الموت؛ فرارا من حياتها التعسة مع زوجها الذي كان يوما أقصى أحلامها. وأخريات تزوجن على غير قناعة أهلهن. وفشلن سريعا في زواج المراهقين. وجاهدت إحداهن؛ للانفصال سنوات حتى وافقت أسرتها بعد ضياع سنواتها. وبقيت الأخريات زوجات دون زواج؛ حتى لا يواجهن مجتمعهن كما عانت تلك الأخرى. كانت تنصت إلى كل ذلك بانزعاج طفولي النزعة. بقي معها حتى تمام صباها. ولم ينج من براثنه أحد ممن حاولن الارتباط بها. وحين فاجأتها والدته التي تحبها كثيرا، وتحدثت معها بأمنيتها في ارتباطها اعتذرت لها متألمة بأنه شقيقها المفضل، فانزعجت الوالدة. وطلبت منها ألا تخبره رفضها. وتمنت أن يأتي يوم تستقيم فيه نظرتها إليه بنظرة ثانية. انزعجت كثيرا ذلك اليوم. ولم تخبر الوالدة العزيزة أنها فقط تخشي إيلامه؛ لأنها هي ذاتها لا تفهم ماذا تريد، ولا تدري لم تفعل ذلك، لكنها تفعله. وجددت

عهدهـا في نفسـها لنفسـها ألا تخذله أبدا بقبوله زوجـا إلا وهي موقنة من إسعادها له. فاذا كان مخلصا صادقا في رغبته سيقاتل من أجل ذلك. وقد يصبـح فارسـها . وإن كان مراهقـا ضعيفـا فسـوف يمـضي متململا، أو غاضبـا، أو حتـى متألمـا بعـد حين. ومـرت عدة سـنوات لم ينتـه فيها أمله بالحصول عليها، ولا رغبتها بتحقيق ذلك الأمل، لكنه لم يحدث رغم يقين عقلها الدائم أنه فارسها الحامي، وشريكها المثالي، وتسليم قلبها له بأواصر الغلاء الشديد. فاجأتها الأقدار بملاقاة فارس آخر لا يشبهها أبدا. وقعت في أسره فـورا لمـاذا. لم تعلـم. هـل كان انجذابهـا السريـع إليـه؟ هل كان؛ لتضادهمـا الواضـح، أم؛ لأنـه ظهر في الوقـت الذي ناسـبت ظروفه فوزه الخاطـف بهـا، أم؛ لتلـك الصورة البهيـة إشراقا عن بطولته التي اسـتبقت ظهـوره إليها ؟ وربما – أيضا – لشـدة دسـامة مشـاعر صديـق الطفولة، والصبا، وسموها. نسيب العائلة، وأسرته القريبة نسبا، وشبها لها. كانت المنصـة مهيأة للفارس الغامض باعتلائها. لم تنـس أبدا دموع والدته حين طلبـت منهـا ألا تخـبره؛ حتى تمهـد هي له. خاصـة أن موعـد الخطبة كان مؤجلا بعد أشهر. لم تنس أبدا نظرته الحزينه التي غُرست في قلبها كخنجر طُبعت في روحها محرقه حين أخبرته «بعد أشهر». شعرت ليلتها أنها تسير نحـو الهاوية، وأن فارس الطفولة – الـذي كان إلى جوارها دائما يحتلمها، ويرعاها، ويرعاها، ويهتم بها دون أن يطلب منها شـيئا – لا يستحق منها ذلـك. بكـت كثـيرا. ولم تفهم لم تفعل ذلـك. لم انجذبـت سريعا إلى ذلك

الفارس الغامض وقبلته فارسا لباقي عمرها دون معرفة به. ولم فرت من فارس الطفولة، والصبا. وبالرغم من ذلك فإنها تهفو كثيرا إليه. وانتهى كل شيء في برهة زمن. انتهت؛ لتصبح زوجة الفارس الغامض الذي اختطفها بلحظة؛ ليرحل فارس الطفولة والصبا بعيدا، ويتزوج هو الآخر من زوجة أجنبية. لم تحبها يوما والدته حتى فارقت دنياها دون أن تكف عن محبتها هي، وزيارتها، فكانت تشعر بالذنب دائما حين تحتضنها الوالدة بحنانها الدافئ كأنها تراها قطعة من ابنها العزيز الغائب منذ سنوات. علمت بعد ذلك بتوفيقه في زواجه وانجابه. وسعدت من أجله كثيرا. خاصة أنها لم تنجب. كان لا يمكن لزوجها الفارس الغامض الإنجاب. وبالرغم من ذلك فقد بقيا معا. علمت بعد ذلك بقليل أنه خدعها، وأنه هو فقط من لا يستطيع الإنجاب بيسر، لكنه احتال عليها؛ ليجبرها على البقاء معه برضاء تام دون تقليل من ذكوريته المريضة. لم يكن ذلك غريبا على شخصه الغامض، لكن الغريب حقا كان علمها، وصمتها، وقبولها دون حتى مناقشة الأمر معه. امتثلت تماما لخدعته كأنها تعاقب ذاتها. لكنْ الأمر لم يقتصر على ذلك، بل ازداد سوءً حين زاد تأخرت حالته؛ لتصبح مزرية بعد فترة قصيرة من زواجهما، ويصبح الإنجاب مستحيلا بالنسبة له. وكان يقوم بالعلاج سريا دون أن يعلمها، ودون أن تخبره أنها تعلم. مرت سنوات أكثر أصبح فيها زوجها أكثر اضطرابا، ومرضا. حتى كاد يدمرها. ومع ذلك احتملته. وظلت إلى جواره. لم تعلم؛ حبا مشفقا عليه، أم

جلدا لذاتها، أم الاثنان معا. كانت تذكر فارس الطفولة والصبا دائما بابتسامة. تتمنى له السعادة حين يتنامى إلى مسامعها شيء عنه. مع شديد حرصها ألا تلتقيه أبدا، وشديد حرصها على رعاية زوجها الذي أحبها، وتعلق بها كثيرا. هل كانت تحب زوجها ؟ نعم كانت تحبه كثيرا. كطفل يحتاج إليها بشدة قدر ما يغضبها بشدة، لكنها لا تملك بالنهاية سوى الحنو عليه كطفل لا يملك تغيير قدره. وربما ذلك ما لائمها كثيرا، فكانا يحيان معا عالمين منفصلين إلا من واجباتها وظل فارسها الغامض كما هو بغموضه الذي تبعه عمرها في ظلاله، ثم توفي فجأة زوجها الذي وفت له طيلة سنواتهما معا. كانت تراه طفلها وإن أثار خوفها. كان طفلها الدائم الذي تغفر له، وتشفق عليه، وتثير حنق المقربين لها، بل وله أحيانا. من تغضبهم تجاوزاته في حقها. أما هي فكانت تحنو عليه بقلب أم؛ فهي لم تعرف قلب الزوجة معه. حزنت عليه كثيرا حزنا أساء إلى بصرها الذي ما كان ليحتمل. كانت وحيدة تماما بعد وفاة والديها؛ فهي الابنة الوحيدة لهما. لم تحتمل البقاء في مسكنها. وتركته؛ لتقيم في أحد الفنادق. خاصة أن تأذّت عيناها كثيرا؛ لإهمالها لها، وانشغالها بزوجها في الوقت الذي كانت في حاجة ملحة إلى الاهتمام بها، ففقدت البصر. كانت تجلس بالشرفة تشعر بالهواء، وتتخيل زهوره التي لا تراها. حين تذكرت فارس الطفولة والصبا، وخلافهما الذي تذرعت به؛ لتنهي صراعا قائما بأعماقها بين سعادتها بتواصلهما معا وإن كان مقنعا بالتخفي من جانبه خشية رفضها، ومقبولا من جانبها متعللا بالشك،

لكنها كانت موقنة. وذات يوم كانت تستمع إلى رسائل البرنامج؛ لتعقب عليها. وكانت رسالته المازحة بينهم، فوجدت نفسها تشعر بالغضب من كلماته. خاصة أنها قد شعرت بها توجع ضميرها المتوجس تجاه بعض صديقات برنامجها صديقاتها محور حديث الحلقة، فدبت دماء الوفاء تسري بها غضبا، ورفضا مفاجئا؛ لتواصلها. وأعلنت الحداد على صداقتهما البريئة؛ حرصا على إرضاء ضميرها المتحفز لها. لم يكن جفاؤهما حقيقيا أبدا، بل كان في حقيقة الأمر منتهى القرب بينهما. كان يفهم ما تعانيه. وكانت تعلم حسن تقديره. وبالرغم من ذلك فقد ظلا معا على خلاف دون خلاف. وذلك منذ حديثهما الأخير الذي قررت حينها – ووافقها – أن يكون حديثهما ذاك هو حديثهما الأخير، فتابعا معا قرار الفراق دون فراق. لم تكن بحاجة إلى مزيد من الوقت تتأرجح فيه عزيمتها، أو تفتر فيه قوتها؛ فقد امتثلت إرادتها كالعادة لحديث عقلها الذي كان يرفض المواصلة تماما مثلما اتفق معه قلبها موقنا بخطأ التبرير. ومضت الأيام طويلة قصيرة بدونه. افتقدته فيها كثيرا وهي تسأل نفسها الصمود. وبالرغم من ذلك فقد بدت تلك الأيام الطويلة قصيرة؛ فقد كانت فارغة بدونه. خيّم السكون على جنباتها المتألمة، فازدادت ألما، وأصبحت الحياة حولها بلا حياة. تلك التي كان يشعلها فيها بحماسه، ومزاحه. صارت فجأة مزحة ثقيلة أن يمر عليها باقي العمر على ذكراه. كانت تعلم أنه لم يقصد إزعاجها، لكنه أزعجها كثيرا بمازحته الساخرة. كما شعر بها ضميرها مؤنبا رغم يقينها التام أنه لا يقصد، وأنه فقط لا يريد

سوى مجرد الحديث معها. كانت تعلم أنه لا يعنيه أمر صديقاتها، ومشاكلهن، أو عملها معهم. وبالرغم من ذلك فقد غضبت كثيرا. ولم تستطع السيطرة على غضبها؛ فقد ألقى بها دون قصد إلى جحيم أفكار هاجمتها غاضبة منها. هي ذاتها. وليس هو. وهي بارعة جدا بجلد ذاتها. فعلت ذلك سنوات مضت دون ندم؛ فهي لا تستطيع التغيير. لا يمكنها إيلام أحد سوى ذاتها. وكثيرا ما كانت تردد ذلك ببرنامجها، وبحياتها من قبله بكل الطرق.

<إن مأساة بعض القلوب المعذبة ليست في حاجتها – أو افتقادها حاجة ما – بقدر ما هي حاجتها إلى الاستغناء عن ذلك الشعور بالفقد.>

<وإن لترويض النفس – على الفقد، والقدرة على الاستغناء – راحة قصوى. بإبقاء القلب خارج حدود الصراع، وإبقاء الذهن في حالة صفاء. لا يشغله غده، أو يؤلمه حاضره.>

<فكل شعور بالقلب يؤلم الضمير هو مرض لابد أن يدركه العقل بالشفاء، وتلك القلوب المعذبة برفض الحال قد لا تحيا بتغييره أفضل مما كانت تحيا به.>

<ربما تحيا وقتها قلوب الأنين المجهدة. حين تدرك أنه لا سبيل إلى التغيير إلا وكان الثمن عسيرا، فتعود أدراجها؛ لتشفق

على روحها باسـمة بقبول المصير، وتوقد من شظايا الألم نارا تشتعل زمهريـرا، وتبلـغ من جبـال الصبر أحجـارا قد كانت لهـا قبل ذلك وعرة المسير.>

تلـك كانت كلماتها التي طالما رددتها إيمانا بهـا. ولازالت تجدد إيمانها بها. نعم لقد أعاد اسـتماعها صوته عبر البرنامج بأول حلقة لها بعد غيابها دقـات الحنين إلى ربوعها، فلازال فـارس الطفولة والصبا قريبا مجيبا حتى دون نـداء، لكنهـا أفاقـت سريعا؛ لترتدي خـوذة الجفاء، ثـم خطر لها أن تكـون حلقاتها القادمـة بالبرنامج عن الوفاء؛ احترامـا لزوجته، وأسرته، وكل قيمها التي تؤمن بها، فأعدت بصوتها تلك المقدمة.

<وحين تشتعل الثورة بين الحنايا

ويدب الحنين متخفيا بالمنايا

وتطل الظنون تخيفني أن أعود مُحملَّة بالخطايا

وتبكي الروح تلومني تهادنني ألا أتعجل النهاية

وأن أترك لهمسات الأمل عبورا لأيام قد تكون بداية

لكنني أنصت إلى طنين الظنون

ويزأر عقلي رافضا ذاك الجنون

وأخشى غيبات الحنين

فأعود إلى طاولتي الحزينة أتجرع صنوف العذاب المريرة ينساب لروحي نداءً حزينا

فألبي النداء مقبضة على جمر شرارة ثورتي القادمة>

سجلت بعدها تعقيبها على رسائل متابعين البرنامج. واختتمتها قائلة:

<نحن لا نفي إلى الآخرين بعهودنا معهم؛ لأنهم أوفياء. وإنما نفي بعهودنا لهم؛ لأننا أوفياء.>

<وأعظم قيم الوفاء هو وفاؤنا لأنفسنا أمام أنفسنا. وما نسره إلى أنفسنا لا يعلمه إلا الله.>

<إن الوفاء للأحباء روعة تدركها قلوبهم، لكن الوفاء لأحبائهم روعة أكبر.>

<قد يكون للوفاء سلام، وأمان بين الأحباب، لكنه بلا شك رقي، وسمو بين الأغراب ممن لا نعرف عنهم، ولا يجمعنا بهم سوى ارتباطهم بأعزاء. ندين نحن لهم بالولاء، ويدينون هم لهم بالوفاء.>

<وأخيرا لا تخبرني عن وفائك لمن أحببت! لكن أخبرني عن وفائك لمن عاهدت!>

<كن وفيا لضحكات طفلك البريئة، وكلمات والدك الباقية، وذكريات والدتك الراقية، وضحكات أسرتك المحبة! كن

وفيا لذاتك، ونبيل ذكرياتك، وجميل أمنياتك! وابقها بعيدا عن وخزات الضمير!>

انتهت أخيرا من إعداد الحلقة، وإعداد نهاية البرنامج بلافتة الرحيل. بعد أيام قليلة كانت تعد نفسها؛ لإجراء جراحة بعينيها قد تجدي، أو لا. لكن كانت في حاجة إليها؛ فقد يمكنها ذلك بالنظر إلى الحياة بنظرة ثانية بعد مرور العاصفة عاصفة قدوم فارسها، ورحيله الغامض، وفقدها بصرها.

اختتمت بتلك الكلمات رسالتها الأخيرة بالبرنامج لصديقاتها اللائي شُغل قلبها بمشاكلهن طوال عملها به. وذابت بين تفاصيلهن الرقيقة، فقدمت نصيحتها، ومحبتها. وغادرت دون أن تخبر أحدا بالرحيل. واستلقت بين يدي الأطباء مستكينة مبتسمة تتذكر، وتتنقل في ربوع والدتها، وطفولتها، وظلال والدها، ومحبته، وبراءة صباها. وحين دنت ذكرياتها من محطات الألم ابتسمت تتجاوزها؛ ليتمتم قلبها بالرحمة على فارسها الغامض؛ فقد أحبته حقا؛ لأنها رأته طفلا. كان بحاجة إلى يمناها، ثم ابتسمت برحابة أكثر لفارس الطفولة، والصبا. وداعبته مخيلاتها باسمة. وابتسمت ابتسامة صبا. لم تدركها سنواتها، لكنها الآن تحياها. تحدثت أخيرا وفارسها بابتسامة سعادة لم تجدها بدنياها حين قال لها باسما:

ـ يقولـون أني أصبحت عجوزا، وغزا الشـيب أروقتي، ونحل بنيانا ضخما بجسـدي، وصرت هزيـلا. حتـى أتيـت أنـت؛ لتلتهم عيناي مـن ضياء روحـك حـرارة الحيـاة، وتدب أحـلام الصبـا في روحـي الظمأى، وتشرق أوردتي بحرارة اللقاء. أين كنت بحق السماء؟

ـ يزعمون أني أصبحت عجوزا، وكسـا الشيب أيامي مثلما كسا الحزن قسـماتي، وذبلت نـار الخدود، وصار خدي ناحـلا كالعود، واختفت من ملامحي فتنة الصبا، وحمرة الشباب. حتى أتيت أنت؛ لتنهل عيناي من نهر قلبك شـوقا يعانق في الحياة ظمأي. ما أجمل ربيعك العائد بي إلى ربيع لا تنتهي دقاته إلا بانتهاء الحياة. أين كنت بحق السماء؟

ـ كنـت أخبِّـؤك بين دقاتي نبضا مسـتديما، وأتنفسـك في شرودي حلما جميـلا، وأداعب مخيلتي بك أملا مسـتحيلا؛ لأظلـل فقط قيظ حياتي بوجـودك وإن عـز اللقاء، وطال الشـقاء. تفاجِؤني السـماء بعودتك بعـد أن أضناني التيه بدونك، ومرافقة طيفـي أيامك نافيا كل وجود لسـواك. وبالرغم من ذلك فقد كنت موقنا مـن لقياك وأنا قابع على أريكـة حلمـي آملا وإن زارني اليأس حينا وقـد ظنني واهما. انتفض قلبـي بـك رافدا من أمـل. أين كنت بحق السـماء ؟ لقـد صار حلم الأمـس ممكنـا، بل أجمل كثيرا من كل حلم داعب قلبي بشـذى عبق قد ملأ الكون حولي صفاء. أين كنت بحق السماء؟

ـ كنت أنتظرك دائما دون انتظار مكملا ذراتي داعما ذاتي سائلة إياك في مخيلتي كل لحظة سعير عن السبيل عاجزة حائرة عن القرار، فأعود بك آمنة في قلبي شاردة بك في كل اختيار، فأفر من ويلات آلامي إليك. أتكئ على مرفأ الحنين؛ ليدمع قلبي برحيق الذكريات. أنت لم تفارق أبدا. وبالرغم من ذلك فعودتك ابتسامة وجهي، وقلبي، وعمري الذي اكتمل بك عائدا قبل أن يرحل القطار. كيف – إذن – تساؤلني وأنت من يدري كيف تكون الحياة مرتسمة، والروح منقسمة ؟ لاتدري كيف، ولا متى يكون الالتئام. تسائلني فتجيب أوردة قلبي المرتحلة في وجدك؛ لتمتزج ابتسامتنا الملتحمة أخيرا. أين كنا بحق السماء؟!

ـ ما أجمل دقات الرحيل حين تكون القلوب هانئة غير عابئة إلا براحة الضمير الذي وفت له دائما، ودام لها وفاؤه . وإن عادت إلى سنواتها الحياة لم تكن لتبدلها مطلقا بنظرة ثانية، فكانت نظرتها الأولى هي نظرتها الثانية.. بعد مرور العاصفة.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	٧
في المرآة	٩
خطوات على الرمال	١٧
لقاء نادر	٣١
أنا العابسة	٣٩
العابسات ينفجرن غضبا	٥٧
طريق الغروب	٦٧
ابتسامة صبا	٩٥